

سلسلة أفكار معاصرة

دين ضد الدين



الشهيد المجهول
علي شريعتي

دين ضد الدين

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة: حيدر مجيد



مؤسسة العطار الثقافية

مقدمة الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عندما نتكلم عن شريعتي، لا بد أن نتكلم عن الإسلام - الأيديولوجيا - بما يعنيه هذا المصطلح، من ثورة وفكر وحضارة وحاكمية، من هنا طرح شريعتي مفهومه المُوَحَّد والمُوَحَّد هذا، من خلال ثلاث طرق:

١ - فهم الإسلام فهماً متكاملًا، وعدم الإقتصار على فهم الأمور التي تتعلق بحياة الفرد فقط، بل فهم الاقتصاد والسياسة والمجتمع والتاريخ ومتطلبات العصر، من منطلق الإسلام ذاته، لأنه عقيدة متكاملة، لكل زمان ومكان.

٢ - أن يُطَهَّر الفكر الإسلامي من عناصر الجمود والركود، سواء التي لصقت به عبر عصور التخلف، أو التي أدخلها الاستعمار.

٣ - أن يصبح الإسلام ثقافة الجماهير، كل الجماهير، وأن يخرج من إحتكار بعض المتاجرين بالدين، والذين جعلوا من الدين دكاناً للإرتزاق، يروجون به أفكاراً حسبوها ديناً عن علم أو جهل،

إسم الكتاب : دين ضد الدين

إسم المؤلف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : حيدر مجيد

تصحيح لغوي وفهرسة : محمود البدري

مراجعة وضبط : حسين شعيب

تنضيد وإخراج : حوراء محمود البدري

تصميم الغلاف : New Moon Ray

الطبعة الأولى : ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

قالوا في شريعتي

الإمام الخميني (قده)

«لقد أثارت أذكار الدكتور شريعتي الخلاف والجدل أحياناً بين العلماء لكنه في نفس الوقت لعب دوراً كبيراً في هداية الشباب والمتعلمين إلى الإسلام»^(١).

السيد أحمد الخميني (ر)

إن ما قدّمه الدكتور شريعتي كان عظيماً، بحيث يتعذّر عليّ الآن الإحاطة به، لأنه في الواقع كان ولا يزال معلّم الثورة الإسلامية.

(١) من كلام للإمام الخميني (رضي). راجع كتاب «شريعتي درجهان» صفحة ١٩٤، تأليف حميد أحمدزي، والصادر عام ١٣٦٥ هـ. ش، عن شركة سهامی انتشار (الناشر).
(٢) مصدر فارسي: از كتاب كدامين راه سبوم (مراسيم دو منزل دكتر علي شريعتي، آذر ماه ١٣٥٩ هـ. ش/ ١٩٨٠ م).

لنُسقطوا الأهداف السامية للدين الحقيقي^(١).

وتعبيراً عن هذه الأفكار جاء كتابه هذا - دين ضد الدين - أو «الدين ضد الدين» والذي يعتبر من أفوى كتبه - وأخطرها - ليكون حلقة رئيسية في منظومة شريعتي الفكرية، والتي نعمل على إبرازها من خلال مشروعاتنا القائمة لـ: ترجمة ونشر الأعمال الكاملة للدكتور علي شريعتي، وذلك بالاتفاق مع مؤسسة نشر آثار الدكتور في إيران، بموجب عقد موقع حسب الأصول القانونية، والذي أصبح فيه دار الأمير للثقافة والعلوم - بيروت يملك الحق الحصري بترجمة ونشر آثار الدكتور شريعتي باللغة العربية.

ونحن إذ نطرح هذا الكتاب للنشر، نتوجه بالشكر الجزيل للمترجم الأستاذ حيدر مجيد علي ما بذله من جهد جهيد، في ترجمة هذا الكتاب، والذي يأتي بعد ترجمته للكتاب الأول - التشيع العلوي والتشيع الصفوي - ليضيف للمكتبة العربية منارة أخرى من منارات الدكتور شريعتي، ونحن والقراء الكرام بانتظار الإنتهاء من ترجمته للعمل الثالث وهو - كتاب معرفة الإسلام - بنصه الكامل، والذي سيصدر قريباً بعونه تعالى.

أخيراً ندعو الله سبحانه أن يوفقنا لأداء هذه الرسالة، معتمدين عليه وحده، عليه توكلنا وإليه نُنِيب.



(١) يتصرف عن مجلة الشهيد العدد (٢٠) تاريخ ١٩٧٩/٦/٢٧ م - ص ٣٤.

المستغربين والتابعين للأجنبي ولكل ما يأتي من الخارج، حيث كانت علاقته بالأمة قوية وكان متفاعلاً معها... يستلهم منها ويخاطبها وكان ذلك دأبه وديده^(١).

الإمام السيّد علي الخامنئي^(١)

في الحقيقة كان الدكتور شريعتي مالياً، صلب العقيدة وعاشقاً لكل ما هو مقدّس في الإسلام، وذلك ما لمستّه منه عن قرب، وليس من خلال ما أشيع عنه، أو ما قالته عنه التيارات الفكرية في حقّه، وهنا يمكن أن نستند في تقييمنا للدكتور شريعتي على نقطة مهمة، وهي من خلال مواجهته للتيارات الفكرية الأخرى في ساحتنا، وكانت هذه التيارات قد بدأت عملها من خلاق ثلاثة محاور؛ وهي: مواجهة الحسّ الوطني، ومواجهة كل ما هو إسلامي، ومحاولة تفتيت الأمة. وكانت تلك التيارات تتقدم بحسب اتجاهاتها، ولكن الدكتور شريعتي لما ظهر على ساحة الفكر الملتزم اختلف مع تلك التيارات في عمله بمقدار ١٨٠ درجة، مما يعني أن الدكتور شريعتي كان له ارتباط قوي بالإسلام، وأنه كان على طرفي نقيض مع حثالة

(١) مصدو فارسي: ويزنامه هيجدهمين سالگرد هجرت وشهادت دکتر علي شريعتي، الناشر: كرد آورنده؛ محمد علي أمير كل، إيران، رشت، ص١، از روشنگران وشریعتي، ص٥٥ - ٥٧، شخترائي رهبر معظم انقلاب در مدرسه عالي شهيد مطهری.

(١) الولي الفقيه وقائد الجمهورية الإسلامية في إيران، وكان في أيام الثورة على معرفة وصلة بالدكتور شريعتي.

الدكتور شريعتي، أبوه رجل دين غير معمم، إسمه الشيخ محمد تقي شريعتي. وهو رجل فاضل أسس مؤسسة في خراسان اسمها «مجمع الأبحاث القرآنية». وأنا ألقيت محاضرات هناك، قبل عشر سنوات تقريباً.

الدكتور شريعتي، هو إيراني قروي من قرية «مازينان» في إيران، قرب «كوير» يعني الصحراء في إيران. تخرج من جامعة «السوربون»، واختصاصه «علم الاجتماع الديني». وعاد إلى إيران، وكان يعطي دروساً في جامعة خراسان، ثم في جامعة طهران، ثم تحول إلى داعية ديني.

له أكثر من مئة وخمسين كتاباً. كتبه، محاضراته، في الواقع، محاضراته أربع ساعات، خمس ساعات، ست ساعات، سبع ساعات إرتجال، تسجل وتُطبع وهكذا.

أديب شامخ، فكره إسلامي نضالي منفتح. إسلاميته، وطبقته، وموقف رجال الدين، لم تجعل من دعوة الدكتور شريعتي، دعوة محافظة، رجعية، يمينية كما هو التقليد، لأن الدعوة الإسلامية، تعتبر في كثير من الأوساط، دعوة محافظة على الأقل، لكن دعوة الدكتور شريعتي للإسلام، دعوة تقدمية، ثورية، نضالية، أو ما نسميه نحن دائماً في اجتماعاتنا، دعوة حركية، وليس دعوة مؤسسية. يعني ليس الإسلام دكاناً يجب أن نحفظ بمكاسيه، ونأخذ لأجله من الناس، ونسخر الناس لخدمته، كما حصل بالنسبة للمؤسسات الدينية.

الإمام السيّد موسى الصدر^(١)

الذي صلى على جثمان شريعتي في دمشق ١٩٧٧م

كان لنا صديق، زميل - قائد من قادة الفكر الإسلامي، هو الدكتور شريعتي، توفي في هذه الفترة الأخيرة. وفي «الرسالة» التي استطيع إن شاء الله بعد يومين أو ثلاثة، يوجد له نعي وصورة، والعدد القادم من الجريدة سيخصص له بإذن الله.

أحببت أن أنقل للإخوان، صورة عن هذا الرجل، وألقي بهذه المناسبة ضوءاً على البعد العالمي لحركتنا.

(١) السيّد موسى الصدر غني عن التعريف، أسس حركة المحرومين في لبنان، والمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الذي ترأسه، وكان له الدور الأهم في إطلاق وتشريع المقاومة المسلحة ضد «إسرائيل»، ورفع شعار «إن شرف القدس بأي أن يتحزّر إلا على أيدي المؤمنين» فمن هذا المبدأ عمل الإمام الصدر على بناء القاعدة الإيمانية العريضة على المستوى اللبناني، وناضل إلى جانب الإمام الخميني الذي كان يعتبره إبناً من أبنائه.

هذا النص أعلاه جاء في الإحتفال التأبيني الحاشد، الذي أقامه الإمام الصدر تأليفاً للدكتور علي شريعتي في الكلية العاملة في بيروت، وعلى أثره سحب الشاه المقبور الجنسية الإيرانية من السيّد الصدر.

المؤسسات الدينية اليوم، لها أموالها، ولها أوقافها، ولها رجالها، ولها شؤونها وبرتوكولاتها، ولها خصوماتها، ولقاءاتها، ولها مكاسبها. تماماً مثل الاتحاد السوفياتي أو الصين، بعدما تحولوا إلى دول، ونسوا كونهم حركة إنقلابية عالمية. فبدأوا يفكرون بالإحتفاظ بمكاسبهم، ولأجل الإحتفاظ بهذه المكاسب، يجب التحالف حتى مع الشيطان، أو مع نصف الشيطان، أو مع ربع الشيطان بالتالي، فنرى أن الصين الشيوعية اليوم تلتقي مع القوى اليمينية في العالم للإحتفاظ بمكاسبها وللمنافسة مع الاتحاد السوفياتي، والاتحاد السوفياتي نفس الشيء.

إذاً حركة إنسانية، في مرحلة من المراحل كثيراً ما تتحول إلى مؤسسة، متى؟ عندما تشيخ. الحركة في بدايتها شابة، ناشطة، متحركة، تُخيف، تقتحم، تتقدم، إلى أن تنتهي أنفاس المؤسسين، فتشيخ، وتفكر كيف تحفظ رأسها، ولا تصطدم مع الناس، تتحالف مع هنا، وهنا، تفكر بالإحتفاظ بالمكاسب.

الدكتور شريعتي، في أحد كتبه، يقول: في فرنسا، رحت أشتري مجلة «جون أفريك» Jeune Afrique، فوجدت أن الأمن الفرنسي قد جمع نسخ هذه المجلة الفتية الإفريقية، قلت في نفسي: يا سبحان الله! فرنسا، معقل الحريات، مركز جميع أنواع الدعوات، من الشيوعية المتطرفة، إلى التروتسكية، إلى غير ذلك، إلى اليمين إلى الوجدانية، والوجودية، وكل أنواع الفكر؛ كيف فرنسا هذه تخاف من مجلة «جون أفريك» فتجمعها من السوق؟

السبب أن هذه مجلة شابة، حركة جديدة، تقتحم وتُخيف، بينما الحركات الأخرى كادت تتحول إلى مؤسسات لها وجودها.

طبعاً الدكتور شريعتي، كان أحد قادة الفكر الإسلامي في العالم. أفكاره قيمة جداً، وكان يحضر درسه الأسبوعي، حوالي ستة آلاف طالب وطالبة جامعيون أو متخرجون، في مؤسسة معينة باسم «النادي الحسيني للإرشاد».

طبعاً حُورب من قبل الحكم في إيران، وحُورب أيضاً من قبل مجموعة من رجال الدين، الذين يعتبرون الإسلام حكراً عليهم، وميراثه من حقهم، وهم وحدهم يفهمون الدين، ولا يحق لأحد أن يفهم غيرهم.

هذا الرجل بالفعل كان مصدر الإلهام، والتفكير والعطاء لكثير من الحركات الإسلامية، من جملتها حركتنا. ونحن سنحاول؛ بإذن الله، بالإضافة إلى العدد القادم من «أمل ورسالة»؛ أن نخصص عدداً نلخص فيه أفكاره، ثم نترجم ونطبع أفكاره وكتبه ومحاضراته، حسب التيسير وفي حدود الإمكان، في لبنان، بإذن الله^(١).

بدون شك، إن التيار الذي كان يحترم ويكرّم الدكتور شريعتي، كان تياراً ساحقاً، تقريباً الشبيهة المسلمة في إيران، وهو الذي جعل التيار الإسلامي في إيران أقوى من التيارات الحزبية

(١) السيد موسى الصدر كان أول من نقل كتب شريعتي ومحاضراته إلى اللغة العربية، وأول كتاب كان الشهادة والذي قمنا بإعادة نشره هذا العام ولكنه - السيد موسى الصدر - رفض حينها وضع اسمه على الكتاب كترجم أو مُترجم. (الناشر).

الأخرى. يعني الجامعة كانت بيدهم، والتأثير الإسلامي كان عميقاً في المجتمع الإيراني، حتى أن الشيوعيين امتثلوا للحكم، وبقيت الحركة الإسلامية تقاوم وتدافع وتناضل.

الدكتور شريعتي، من خسائر الفكر الإسلامي، والفكر الحركي، الفكر التضالي المعتمد على الإيمان بالله سبحانه، ولذلك نحن نعتبره فقيدها وخسارتنا، ونكزّمه في هذا اليوم، يوم علي، مولاه ومولانا، ونبعث إلى روحه أيضاً، ثواب الفاتحة^(١).

الشهيد الدكتور مصطفى شمران^(١)

رفيق الإمام موسى الصدر في لبنان
وأول وزير دفاع بعد انتصار الثورة

... وأنت أيها الرب الكبير قد منحتنا (علي) لتعلمنا طريق

(١) بعد إنتفاضة الشعب الإيراني المسلم في (١٩٦٣/٦/٥م)، ذهب الشهيد مصطفى شمران(ره) إلى مصر (في عهد الرئيس جمال عبد الناصر) لتلقي تدريبات على حرب العصابات، وبعد إنهائه لتلك الدورة التدريبية أخذ على عاتقه تدريب المجاهدين الإيرانيين خارج البلاد. ونظراً للموقع الاجتماعي الذي يتميز به لبنان، فقد وجد في جنوب لبنان منطقة مناسبة لنشاطاته والتي شارك فيها العديد من قادة ورجال الثورة ومنهم نجل الإمام الخميني(رض) السيد أحمد الخميني(رحمه الله)، وتمكن مع الإمام الصدر (أعاده الله) من تأسيس «حركة المحرومين» والتي سقيت فيما بعد بحركة أمل.

عاد إلى إيران بعد انتصار الثورة الإسلامية، فوضع حجر الأساس لمؤسسة حرس الثورة الإسلامية من خلال تدريب أول مجموعة من الحرس. كما ابتنى عن طريق تولي منصب مساعد رئيس الوزراء لشؤون الثورة، لحل المشاكل التي كانت تواجه النظام الإسلامي. عينه الإمام الخميني شخصياً وزيراً للدفاع.

انتخب نائباً عن طهران في إنتخابات أول دولة لمجلس الشورى الإسلامي، ثم عينه الإمام الخميني ممثلاً عنه في مجلس الدفاع الأعلى.

(١) مسيرة الإمام الصدر. الجزء ١١ ص ١٥٤ - ١٥٥ إعداد وتوثيق يعقوب ضاهر - دار بلال - ط ١، سنة ٢٠٠٠.

العشق والفداء وطريقته، ليحترق كالشمع وينير لنا الدرب، وها نحن نقدمه لك كأفضل هدية ليستقر عندك ويبدأ حياته الخالدة في ملكوتك الأعلى.

قسماً بالعدل والعدالة، أنك - علي شريعتي - كالموج المتلاطم تغلي في نداءات المظلومين ضد الظالمين ما دام الظلم والإضطهاد يُثقل كاهل البشر^(١).

مقدمة المطبعة الفارسية

بسم الله الرحمن الرحيم

الهدف من نشر هذه السلسلة هو أن تقوم - بعون الله - بتحرير وطباعة كل نتاجات الاستاذ الشهيد الدكتور علي شريعتي، المسموعة فيها والمقروءة، سواء نشرت من قبل أم لم تنشر بعد، وذلك بأسلوب يتوخى الدقة والأمانة ويأخذ بعين الاعتبار جميع التعديلات والآراء التي استحدثت لديه دون أدنى تصرف في ما هو المأثور عنه.

ومن هنا، فإن جميع كتابات وخطابات الاستاذ الشهيد والتي طبعت بلا اشراف منه، سوف يصار إلى إعادة طبعها بعد مطابقتها مع الأشرطة والمذكرات الأصلية، مراعاة للأمانة العلمية وتفادياً لحصول سوء فهم أو توظيف.

نسعى إلى تبويب المطالب ونشر ما كان متوزعاً على كراسات صغيرة أو متوسطة، في كتاب واحد وتحت عنوان واحد، محققين بذلك أحد أمانتي استاذنا الشهيد «تراجع لهذا الغرض وصيته المنشورة في سلسلة الآثار - العدد ١».

كل كتاب أو مجلد سوف يتضمن في آخره فهرس شاملة للأعلام والأمكنة والمصطلحات والمفاهيم. إن مهارة وحكمة استاذنا

وقام بتأسيس قيادة حرب المعصابات في مدينة الأهواز عند بدء الحرب مع العراق، جرح في ميدان الحرب عام ١٩٨٠م، ثم عاد إلى الجبهات بعد شفائه. استشهد في ٢١ حزيران عام ١٩٨١م عند إصابته بشظية قذيفة مدفعية في جبهة الحرب بمنطقة الدهلاوية. (الناشر).

الشهيد في استخدام المفاهيم والمصطلحات الموجودة في تراثنا الاسلامي الايديولوجي وايضاً في الثقافات والمدارس الفكرية الأخرى، هو احدى الباقيات الصالحات لاستاذنا الشهيد، وبالتالي فإن التمتع في هذا المجال يعدّ امرأ ضرورياً لمن يريد أن يوفق الى التعرف على أفكار هذا الرجل الكبير واستشراف متبنياته الفكرية والعقائدية والثورية، والاستفادة من هذا الرصيد التربوي الغني.

يشار الى اننا قد نورد بعض الإشارات مدعومة بذكر مصادرها، فيما اذا اقتضت الضرورة، وذلك في قسم الملاحق.

جدير بالتأكيد والملاحظة ان الملاحق تم اعدادها من مكتب النشر، وعليه فهو يتحمل مسؤولية كل الأخطاء والبهفوات والقصور الذي يمكن ان يسجل عليها.

على أمل أن يعثر طلاب الحق وأصحاب الفكر الحزّ الملتزم في هذه السلسلة على أسلم نتائج الاستاذ الشهيد وأكثرها نقاء وأصالة.

ملاحظات الناشر

يشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أقسام أصلية وقسم رابع خاص بالملاحق يتألف بدوره من أربعة مواضيع.

أما الأقسام فهي كالتالي وحسب الترتيب:

١ - الدين ضد الدين - وهو عبارة عن محاضرة في ليلتين

متواليتين ألقاهما الاستاذ الشهيد في صيف ١٩٧٠ م في حسينية الارشاد بطهران. وقد تم تحويل هذه المحاضرة الى نصّ مقروء في حينها وبإشراف من الاستاذ نفسه. ومن هنا فقد أجرى المكتب مقارنة بين النصّ المحزّر والكلام الموجود على الشريط واكتفى بإجراء بعض التعديلات الضرورية.

٢ - أيتاه، أماه، نحن متهمون - وهذا القسم هو في الأصل محاضرة أيضاً ألقيت خريف عام ١٩٧١ م في حسينية الارشاد أيضاً، بعدها أجرى الاستاذ بنفسه تعديلات وأضاف لها أموراً أخرى ونشرت سابقاً على هيئة كتاب.

٣ - نعم، هكذا كان يا أخي! - هذا القسم محاضرة أخرى ألقاه الدكتور الشهيد خريف العام نفسه (١٩٧١ م) وفي نفس المكان (حسينية الارشاد بطهران)، ومن ثم أدخل عليها اضافات وتعديلات وجاءت توضيحاته على متن المحاضرة المحزّرة.

٤ - الملاحق، وتتألف من الأمور التالية:

الف : تويني، الحضارة والدين - وهي عبارة عن حوارية كتبها الاستاذ بنفسه، ويبدو أنه أعدها في ضوء حوارات جرت بينه وبين تويني في مشهد. ومما يلزم ذكره ان هذه المقالة تطبع لأول مرة، وتاريخ كتابتها غير معلوم.

ب : وداعاً يا مدينة الشهادة - وهي مقالة كتبها الدكتور في أواخر

شتاء ١٩٧٢ م بعد أن حرم من مواصلة التدريس في جامعة مشهد.

ج : لولا البابا وماركس - مقالة منه لا يعرف تاريخ تحريرها.

د : ندوة للإجابة عن الأسئلة والاشكالات: وهذه الندوة كما

يظهر من اسمها عبارة عن مجموعة اجوبة عن اسئلة واستفسارات وانتقادات موجهة الى حسينية الارشاد بنحو عام والى شخص الاستاذ شريعتي على الخصوص، وتتألف من قسمين، الأولى انعقدت بتاريخ ١٤/١٢/١٩٧١ م وتحدث فيها اشخاص آخرون ممن لهم نشاط في الحسينية، وحيث ان الحوارات مترابطة، أفرنا ايراد كلمات بقية المشاركين في الندوة الأولى مع ايراد اسمائهم.

في الختام ، يشار الى النقاط التالية:

١ - في كل مورد نضطر فيه لإضافة عبارة ربط أو توضيح فاننا نضعها بين حاصرين من نوع [] .

٢ - في الموارد التي يتعذر علينا تشخيص كلمة (من مقال أو شريط) أو حتى حدسها يصار الى وضع العلامة التالية: "... * " .

مكتب تدوين وتصنيف

سلسلة نتاجات الشهيد الدكتور علي شريعتي

آذار / ١٩٨٢ م

كلمة بخصوص الترجمة

١ - بالنسبة للقسم الثاني من الكتاب أي محاضرة (أبتاه أماه نحن متهمون) فلم نقوم بترجمته في هذا الكتاب لأنه مترجم ومنشور من قبل ، رسيهر عن دار الأمير بكتاب مستقل .

٢ - عرّفنا عن ترجمة القسم الأول من الندوة الواردة في الكتاب لاشتماله على أقوال وكلمات أفراد آخرين، ولم تكن هناك ضرورة ملحة لايراد كلام الاستاذ الشهيد فيها، وذلك ان الندوة الثانية التي خصصت للاستاذ وحده تكاد تكون مشتملة على كل ما أورده في الندوة الأولى فلم نر داعياً لتطويل المسافة على القارىء.

٣ - من المناسب التنويه الى أنّ الكتاب يشتمل على أقسام متباينة من حيث الأصل فبعضها محاضرة وبعضها مقالة وبعضها حوار في ندوة، الأمر الذي قد ينعكس على أسلوب الكلام وبالتالي الترجمة، لذا اقتضى التنويه .

المترجم

الدين ضد الدين

موضوع حديثي لهاتين اللبنتين هو (الدين ضد الدين).

وربما يبدو هذا العنوان غامضاً، وهذا الغموض ناجم عن قناعة عامة لدينا بأنّ الدين كان دائماً ضد الكفر، وأن المعركة استمرت تاريخياً بين الدين واللادين، فيكون التعبير بـ(الدين ضد الدين) منطقياً على قدر من الغموض والغرابة والاستكثار، بينما قد توصلت أخيراً - وربما من قبل ولكن ليس بهذا المستوى من الوضوح - إلى أن الحقائق التاريخية تؤيد عكس التصور الآنف الذكر وأن الدين لم يكن يواجه إلا بالدين، خلافاً للتصور الساذج الذي نحمله اليوم.

بدءً أشير إلى أن الحديث عن التاريخ هنا لا يراد منه المعنى الاصطلاحي الشائع والذي يعبر به عادة عن تاريخ ظهور الحضارة أو اختراع الكتابة، بل أقصد بداية الحياة الاجتماعية للنوع الانساني على وجه الأرض. وفي ضوء ذلك فإن التاريخ الذي نتحدث عنه تعود بداياته إلى ثلاثين أو أربعين وربما خمسين ألف سنة، بينما التاريخ بمعنى بداية المدنية واختراع الخط لا يتعدى قدم ستة آلاف عام. التاريخ بالمعنى المختار يشتمل على دراسة الآثار القديمة وعلم

الأرض والاجتماع والبحث في القصص والاساطير القديمة بما يوفر لنا علماً اجمالياً حول حياة الانسان بأجياله الأولى ومنهجه الحياتي والعقدي.

فعلى مدى هذا التاريخ الذي قلنا ان بداياته وصلت اليها عبر الحكايات والاساطير وكلما اقترب الزمن نحونا أصبح في متناول أيدينا مستندات ووثائق بشأنه ، كان الدين هو العدو اللدود المناويء للدين السائد، وذلك أن المجتمعات البشرية في جميع مراحلها لم تغل من دين ابدأ، اي ان التاريخ لم يحدثنا عن مجتمع عاش بدون دين، في أي مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي، وفي أي نقطة على وجه الأرض.

صحيح، اننا ربما نصطدم في القرون المتأخرة - حيث نمت مظاهر المدنية والفكر والفلسفة - بأشخاص ينكرون وجود الخالق أو المعاد، غير ان هؤلاء الاشخاص لم يحدث في وقت من الأوقات ان يرتقوا الى مستوى طبقة او فئة اجتماعية معتد بها. وحسب قول كارل: (فإن التاريخ ضم بين دفتيه مجتمعات عاشت وانقرضت ولكن هذه المجتمعات كانت ذات نظم ديني بشكل عام).

إن المحور الذي يقوم عليه مجتمعٌ ما، هو ايمانه الديني ومعتقداته المذهبية، حتى ان المظهر الخارجي للمدن يعكس حقيقة الوضع الروحي للمجتمع الموجود فيها.

خلال القرون الوسطى، وقبل ظهور المسيح، كانت المدن في الغرب وفي الشرق تتألف من مجاميع من الدور والمباني تبنى على نسق معين وبلاستناد الى معايير طبقية أو قبلية بحيث يكون لكل قبيلة أو طبقة، محلة محددة تقترب أو تبعد عن مركز المدينة حسب المكانة الاجتماعية التي تتمتع بها تلك القبيلة أو الطبقة، وعلى أي حال فان قاسماً مشتركاً يمكن ملاحظته في المدن المتحضرة، شرقية كانت أو غربية، كونها تحمل طابعاً رمزياً، أي ان نظم المدينة لا يكون اعتبارياً بل ينطوي على دلالات معينة، وفي الغالب يتم إبراز هوية المدينة من خلال طريقة بناء معيها. طبعاً هذه الحالة آخذة بالزوال والانقراض هذه الأيام. فمدينة طهران مثلاً ليس لها طابع رمزي، بمعنى ان طريقة تنظيم مبانيها وشوارعها لا تستند الى محورية معينة، لا دينية ولا غير ذلك. بينما روعي هذا الأمر في بناء مدينة مشهد، إذ لو اخذنا للمدينة صورة جوية، سوف يتجلى فيها بوضوح الطابع الرمزي للمدينة، حيث تظهر البنايات فيها وكأنها تتمحور حول شجرة في الوسط، وهذه الشجرة ترمز الى هوية المدينة وتمثل بطاقتها الشخصية.

والسؤال الذي يطرح الآن، لماذا كان بناء المدن يتم بهذه الطريقة الرمزية؟ والجواب واضح، فإن أي حضارة أو دولة أو مدينة لم تكن تقوم في السابق إلا على أساس ومركز ديني. يمكنكم ملاحظة جميع الكتب الموجودة لدينا حول تاريخ نشوء المدن مثل: (تاريخ قم)

و(تاريخ يزد) و(فضائل بلخ) و(تاريخ بخارى) و(تاريخ نيسابور) وغيرها ... مستجدون ان جميع تلك الكتب تتفق على ارجاع ظهور المدينة الى وازع ديني أو مناسبة مذهبية، كأنهم غير قادرين على التصديق بأن مدناً كبيرة كهذه يمكن أن ترى النور دون أن يكون وراء ذلك عامل ديني أو معنوي، فلا بد من وجود نبي مدفون في المنطقة التي توجد فيها المدينة، أو شخصية دينية صالحة، أو حتى واقعة دينية من ظهور معجزة أو غيرها. خلاصة الأمر أنه لا بد من افتراض ميرر ديني وعقدي لوجود مدينة أو نشوء كيان حضاري. وهذا يكشف عن حقيقة مفادها أن المجتمعات الانسانية القديمة، وعلى اختلاف انواعها وانماطها، كانت تأتلف على أساس عنصر مشترك هو (روح الدين) الموجودة في ضمير الانسان القديم مهما كان نوع المجتمع الذي ينتمي اليه، طيقياً أو قبلياً، حضرياً أو بدوياً.

وفي ضوء ذلك فإن ما نفهمه اليوم من كلمة (الكفر) من عدم الاعتقاد بما وراء الطبيعة والله والمعاد والغيب والمقدسات، ليس له واقع موضوعي، وذلك أن جميع أبناء البشر مستفقون على الايمان بهذه المبادئ والأصول العامة. واما المعنى الذي نفهمه اليوم من (الكفر) بمعنى اللادين فهو معنى مستحدث وطاريء، ويعود الى القرنين أو الثلاث قرون الأخيرة، أي فترة ما بعد القرون الوسطى. وهو معنى قام الغرب بتصديره الى الشرق كبضاعة فكرية، في ضوءها أصبح الكفر

بمعنى عدم الاعتقاد بالله وبكل ما وراء الطبيعة والعالم الآخر. بينما اذا ألقينا نظرة على تاريخ الاسلام ونصوصه القديمة بل تاريخ جميع المذاهب والاديان يتضح لنا أنه متى ما جرى الحديث عن الكفر فليس يتغنون بذلك الحالة اللادينية، وذلك أن حالة كُتلك لم يكن لها وجود أصلاً.

وعليه فالكفر هو نوع من الدين أيضاً، يطلقه أهل الأديان عادة على من لا يستحل نحلته ولا يدين بديانتهم. ولهذا قد تتقابل الإطلاقات ما بين أهل ديانتين فيعتبر كل منهم الفريق الآخر كافراً.

والحاصل أنه متى ما ظهرت دعوة دينية، سواء على صعيد تاريخ الأديان الابراهيمية أو على صعيد المذاهب الغريبة والشرقية وبأي نحو كانت، فهناك قضيتان اساسيتان :

الأولى : ان هذه الدعوة الدينية تظهر على رغم وجود الديانة السابقة بل لمواجهتها.

والقضية الثانية: ان الديانة القديمة وأهلها سوف يكونون أول من يشنّ الحرب ويعلن المواجهة ضد القادم الجديد.

وحينئذ فنحن الآن بإزاء قضية في غاية الأهمية، من شأنها ان تحل أهم المشكلات المعاصرة على صعيد إصدار الأحكام بواسطة الشخصيات المستنيرة في عالمنا هذا، وتسهم في التحليل العلمي

والتاريخي لأخطر حكم أصدره المستشرقون حول الدين، والناضي بأن الدين يتنافى مع الحضارة والتقدم واردة وحرية الشعوب، أو هو في أحسن الأحوال غير قادر على مواكبة هذه الأمور.

وهو حكم لم يأت جزافاً بل على أساس مفردات واقعية وأرقام علمية وتجارب تاريخية متكررة. إن هذا الحكم ليس حكماً تعسفياً ناجماً عن حقد وكراهية أو جهل مطلق، وإنما هو حكم مستند إلى مبررات علمية ومشاهدات عينية ووقائع اجتماعية وتاريخية مدعومة بأدلة وأرقام.

ومع ذلك، فأنا اعتقد أن هذا الحكم غير صائب، وذلك لأن أصحابه وقعوا في الخطأ ذاته الذي وقعنا نحن - أنصار الأديان - فيه، وذلك في عدم الفرز بين الدينين، وتخيل المواجهة بين الدين واللادين، فتميل أولاً إلى إثبات الدين بشكل إجمالي عام ومن ثم تنتقل إلى إثبات ديننا بشكل خاص، وهذه منهجية خاطئة في البحث. هذا الخطأ وقع فيه المناهضون للأديان في أوروبا في القرنين الأخيرين خاصة القرن التاسع عشر حيث بلغت فيه موجة المناهضة للدين أوجها في أوروبا. والسبب عدم قدرتهم على الفرز بين شكلين من الدين مع شدة الاختلاف بل والتناقض والتخايم الدائر بينهما على الدوام، وبالتالي أصدروا حكمهم بناء على وقائع وأرقام حسية وواقعية لمسوها من خلال النمط الثائم من الدين، وحيث لم يكونوا قادرين على إدراك النمط الآخر

عتموا الحكم على الدين بمطلق اشكاله دون أن يشعروا بأن الحكم الذي أصدره ينطبق على نصف الحقيقة ويهمل نصفها الآخر، بل ويتجنى عليه، وذلك لأنه ثمة نمط آخر من الدين يختلف اختلافاً جوهرياً عن النمط الذي اصطدموا به وبممارسات أتباعه، وهذا الاختلاف ينسحب على جميع خصائص وصفات كل نمط بحيث لو أردنا إثبات صفة لأحدهما تعيّن تفحصها عن الآخر.

وأود الإشارة هنا إلى نقطة في غاية الأهمية، وهي أنني ربما ألجأ إلى استخدام نفس المصطلحات المتداولة بيننا، ولكن أعني منها معنى غير المعنى الرائج والشائع، لذا أرجو من الأخوة أن لا يسارعوا إلى فهم المصطلحات وفق ما هو مرتكز في أذهانهم ومن ثم يصدرُوا أحكامهم على خلاف المعنى الخاص بي والذي أريده من الاصطلاح الوارد في كلامي، وسوف ألجأ إلى تحديد المفاهيم التي أعنيها من المصطلحات التي أكثر استخدامها، تحسباً من وقوع لبس أو خلط بين معنيين متباينين تماماً، وهذه الاصطلاحات هي: الكفر والشرك وعبادة الأوثان.

الكفر

الكفر بمعنى الستر والتغطية، وهو من الزراعة حيث تزرع الحبة

ومن ثم تغطي بالتراب. ووجه الاقتباس ان الكافر يغطي على الحقيقة الناصعة في قلبه لأسباب وعلل كالجهل والانتهازية. والكفر ليس بمعنى تغطية الدين باللادين بل بمعنى تغطية الدين بواسطة دين آخر.

الشرك

هل يعني الشرك عدم وجود الإله؟ كلا، إذ المشركون لهم آلهة أكثر منا! المشرك ليس هو الشخص الذي لا يؤمن بالله إذ لا وجود لشخص كهذا.

ومن المعلوم ان الذين وقفوا بوجه عيسى وموسى وإبراهيم هم مشركون وليسوا ملحدين. فمن هم المشركون إذن؟ بالطبع ليسوا اشخاصاً لا يؤمنون بالرب، بل على العكس هم فئة يؤمن افرادها بأرباب كثيرين، وعليه لا يمكن من الناحية العلمية اطلاق وصف المشرك على افراد عديمي الاعتقاد الديني، وذلك لأنَّ المشرك يعتقد بوجود معبود، بل أكثر من معبود، وهو يؤمن بعبوديته لهذا المعبود ويعتقد بتأثيره في مصيره ومصير العالم الذي يعيش فيه، وهو يمتلك نظرة الهية مثلما لدينا تلك النظرة.

وعليه فمن الناحية الحسية يعدّ المشرك انساناً متديناً وإن اخطأ الهدف من حيث المصادق وسلك طريقاً مغلوطاً. وواضح ان الدين

الغلط شيء واللادين شيء آخر يختلف عنه اختلافاً جوهرياً. وحينئذ يمكن القول ان الشرك دين، بل هو أقدم انواع الأديان في حياة المجتمعات البشرية.

عبادة الأوثان

ان عبادة الأوثان لون خاص من ألوان الشرك، وليس شيئاً مرادفاً للشرك، فالشرك عنوان لدين معروف على طول التاريخ، وعبادة الأوثان كان شكلاً من أشكال هذه الديانة في إحدى مراحلها التاريخية. ولك ان تقول ان عبادة الأوثان هي فرقة من فرق الشرك يتميز اتباعها بأنهم يصنعون التماثيل والأصنام إما لكي يعبدوها أو لكي يتقربوا بها إلى المعبود الأصلي ويعتبروها واسطة بينهم وبينه، وعلى أي حال فانهم يؤمنون بأنَّ له قدرة تأثير على مجرى الحياة بشكل أو بآخر.

غير ان القرآن عندما يهاجم (المشركين وعبدة الأوثان) وينتقدهم، يستفيد من الفاظ عامة وذلك تحسباً من إيقاع الناس بالخطأ الذي وقعنا الآن فيه، ولكي لا يفهم من القرآن ان الاسلام قام لمواجهة خصوص هذا النمط من الشرك بالله - نمط عبادة الأوثان - بل ان النهضة الدينية التي قادها النبي تستهدف الاطاحة بكل مظاهر الشرك مهما كان

شكله ولونه. شأنه في ذلك شأن سائر الأديان والحركات التوحيدية.

اننا نقع في وهم كبير عندما نتصور ان الطرف المقابل لنا (دين الشرك) يتجسد في شكل واحد هو عبادة الأصنام، في حال ان قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ﴾ يستلطن - بنفسه - الرد على هذا التوهم الابتدائي، وذلك اننا لو راجعنا التاريخ بطوله والجغرافيا بعرضها نجد ان البشرية لم تقتصر على نحت الصخر ومن ثم عبادته، بل نحتت لها مختلف الأمور، مادية أو غير مادية، ثم تعلقت بها الى حد العبادات، وهذه ظاهرة انسانية عامة عانت منها المجتمعات البشرية وتعاني الى الآن بصور مختلفة، يشكل عبادة الأوثان نموذجاً منها طُبّق وما زال يطبق في بعض المجتمعات الجاهلية العربية والأفريقية.

﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ﴾ عبارة عن مبدأ عام يتضمن تعريفاً شمولياً لأسلوب العبادة في دين الشرك، ذلك الدين الذي ظل يواكب دين التوحيد خطوة بخطوة على مر التاريخ، ولم يتوقف او ينقرض لافي عصر النبي ابراهيم ولا بعد ظهور الإسلام، بل ما يزال قائماً وسيبقى.

خصائص دين الشرك

(هذا بحث في تاريخ الأديان، وسوف أبذل سعياً لاستخدام

مصطلحات مألوقة ومتداولة على صعيد الاسلام وتراثنا الأدبي).

في احد خندقي المواجهة يقف دين التوحيد وعبادة الله . الله بمعنى العلم والارادة والخالقية والتدبير، هذه هي صفات الرب في جميع الأديان الابراهيمية، الخالق لأنه خلق هذه العالم بأسره، والمدير لأن حركة هذا العالم تجري بإرادته. وهو يريد له مطلق الحرية في الحكم على الوجود، وعالم لأنه يشرف اشرافاً تاماً على كل ما في الكون. في الوقت نفسه فان هذا الرب حدّد هدف الخلقة وغاية وجود العالم، ولقد كانت عبادة هذه القوة المطلقة تمثل الشعار الأعلى الذي رفعت به جميع الأديان الابراهيمية، وعرف به ابراهيم شخصياً، وهذا الشعار يعني دعوة جميع بني البشر الى عبادة قوة واحدة نافذة في الوجود، والسير نحو هدف واحد للخلقة، والايان بوجود قدرة واحدة مؤثرة في كافة انحاء الوجود والاستناد اليها في جميع مناحي الحياة.

التوحيد

ان الدعوة المعروفة تاريخياً بدعوة التوحيد، لها بعد مادي يرتبط بهذا العالم، ويتمثل بأن من يؤمن بأن هذا الكون بأسره مخلوق بواسطة قوة واحدة، وان هناك قدرة واحدة تتحكم بأطراف هذا الوجود من مجتمع انساني أو حيواني أو نباتي أو حتى الجمادات، دون أن يؤثر في هذا الوجود شيء آخر، آنذاك يكون من شأن هذه الرؤية التوحيدية

الالهية ان يكون لها انعكاس على صعيد الحياة الانسانية، لأن من يؤمن بأن الكون عبارة عن امبراطورية واحدة يحكمها مصدر قوة واحد، وان البشر خاضعون لإرادة واحدة وينتمون الى جنس واحد ولهم اله واحد تضمحل أمامه كل الوجودات والمظاهر والقوى الأخرى، ان من يؤمن بذلك سوف ينظر الى هذا العالم نظرة كلية يراه من خلالها كأنه جسد واحد تتحكم فيه روح واحدة، وحين ينظر الى البشر يراهم افراداً متساوين ومتماثلين لأنهم خلقوا بيد واحدة وعلى وتيرة واحدة.

هذا الدين التوحيدي هو أحد الديانتين اللتين اشترت لهما، وهو يقوم على اساس عبادة رب واحد والايمان بقوة واحدة مستنفذة في مصير المجتمعات الانسانية على طول التاريخ. وكما قلت فإن من لوازم توحيد الاله توحيد العالم ومن لوازم توحيد العالم توحيد الانسان.

من جهة أخرى فان هذا الاعتقاد البشري يمثل ميلاً فطرياً نحو عبادة القوة الواحدة والايمان بالقداسة - بحسب تعبير دوركايم^(١) - أو الايمان بالغيب بالتعبير القرآني. والدليل على فطرية هذا الاعتقاد

(١) دوركايم (١٨٥٨ - ١٩١٧)، عالم اجتماع فرنسي معروف، كان استاذاً في جامعة السوربون، كان دوركايم يعتقد أنه يتعين على علم الاجتماع أن يدرس المجتمع كنوع خاص من الواقع الروحي، تختلف قوانينه عن قوانين علم النفس الفردي. له عدة مؤلفات منها: «حول تقسيم العمل الاجتماعي»، «قواعد المنهج في علم الاجتماع»، «الأشكال الأولية للحياة الدينية». انظر: الموسوعة الفلسفية، ص ٢٠٠. (مترجم)

وفطرية كل اعتقاد آخر هو دوام هذا الشعور وشموليته لجميع الافراد لجميع الأزمان ما يدل على أنه امر غريزي. ولو أردنا ان نستقصي في اعماق التاريخ لما وجدنا أمة عاشت بلا دين ولا عبادة.

إن هذا الشعور والحس التعدي الملموس في هذا الدين يترجم الى معرفة بهذه القوة المشرفة على العالم، وبالتالي التعرف على العالم كموجود حي قادر حساس له ارادة وغاية وهدف. مضافاً الى ان هذا الشعور التعدي التوحيدي سوف يتجلى تاريخياً في واقع اعتقاد بوحدة البشرية بشتى ألوانها وأقوامها وطبقاتها وأعراقها. ومن ثم وحدة الحق والقيمة والمنزلة.

وعلى الخط الآخر، سيقود دين الشرك أصحابه الى نتيجة معاكسة فيتحول الشرك في كل حقبة زمنية الى عدو لدود لأديان التوحيد يهاجمها او يقاومها ويحول دون اتساع الرقعة الجغرافية او السكانية التي تمتد عليها.

لا توجد فرصة للتطرق الى تاريخ الأديان بتفصيل يستعرض مفردات وحقائق هذا الموضوع بشكل تام، غير أن بمقدورنا بحث دين الشرك من خلال دعوات الأنبياء العظام، وفي هذا السياق تؤكد لنا القصص الواردة في التوراة والكتب المرتبطة بها وكذلك قصص القرآن والروايات ان أعتى قوة جابهت رسالة النبي موسى وألحقت بها أشد الضربات هي حركة (السامري) و(بلمع بن باعورا).

السامري

بعد نجاح موسى في إقناع قومه بالتوجه لعبادة الله الأحد وهجر عبادة الأوثان والعجل والوجودات الأسطورية التي كانت تمثل جميعاً مظاهر لدين الشرك آنذاك، في ذلك الوقت ظهر السامري ليحيي من جديد سمة عبادة العجل بأن اغتنم فرصة غياب موسى عن قومه فصنع لهم عجلاً ودعاهم لعبادته.

ذلك الرجل الذي نحت عجلاً بغية أن يعيده بنو إسرائيل بدلاً من (يهوه) و (الله) لم يكن إنساناً لا دين له، بل على العكس كان منبلاً للعقيدة وداعية للدين!

بلعم بن باعورا

هل كان هذا الرجل فيلسوفاً مادياً أو ملحداً دهرياً أو شخصية مثل مترلينغ أو شوينهاور^(١) كلا، بلعم بن باعورا كان صاحب أعلى مقام ديني في زمانه، وكان كعبة المتدينين وعموم الناس في ذلك الوقت، ومع ذلك فقد نهض لمعارضة دعوة موسى النبي مستغلاً إيمان الناس

(١) آرثر شوينهاور، فيلسوف ألماني، ولد عام ١٧٨٨، وتوفي عام ١٨٦٠، من أشهر كتاباته «العالم كإرادة وكنسور» (المترجم).

وتقتهم به، ما أدى إلى انزال ضربات مؤثرة بدين التوحيد ورسالة موسى.

الفريسيون

انظروا إلى عيسى! من كان سبب معاناته الطويلة والمصائب التي ظل يتعرض لها إلى اللحظة الأخيرة، و - بزعمهم - الإبادة التي تعرض لها، وغير ذلك من الممارسات الخيانية والتهم والافتراءات التي وجهت إليه وإلى أمه؟ من كان وراء ذلك سوى الفريسيين، أتباع وانصار الدين القائم في ذلك الزمان، لم يكونوا مادييين ولا زنادقة ولا دهريين، بل هم أناس ظلوا يعتقدون بدين الشرك الذي جاء عيسى لاجتثاث جذوره.

مشركو مكة

وانظروا إلى نبي الاسلام، فهل كان الأشخاص الذين عقدوا لواء المعارضة والمناوئة له وسلوا سيرفهم عليه في بدر وأحد وهوازن والطائف ومكة، هل كانوا بدون دين أو لم يكن لهم حس ديني؟ كلا! لا يمكن العثور على شخص بينهم كان بهذه المواصفات، كانوا جميعاً أصحاب عقيدة، حقيقة أو ادعاء، وكان شعارهم القضاء على النبي، على

محمد بن عبد الله وأتباعه، بذريعة انتهاكهم لحرمة بيت ابراهيم، ولأنهم صلبوا عن دين آباؤهم وخرقوا الأصول والمقدسات، انهم يريدون القضاء على هذه الأرض المقدسة (مكة) وتحطيم الأصنام التي هي الواسطة بين الله وعباده. وعليه فالشعار الذي رفعتة قريش والعرب من ورائها ضد الاسلام والتي هي شعار الدين ضد الدين.

ومن بعد النبي، استمر هذا الشعار يرفع ولكن بشكل مختلف، هذه المرة بوجه علي واتجاهه الذي كان يحمل روح الاسلام الحقيقي ويسعى للحفاظ عليه. من الذي واجه علياً؟ هل هم الكفار ومن لم يكن لهم دين، وهل كان الشعار المرفوع يدعو الى انكار وجود الله، أو ان الاعتقاد بنمط آخر من الدين في مواجهة النمط الأصيل، هو الذي أدى الى نشوب المعركة - تاريخياً - بين آل النبي وآل أمية ومن بعدهم آل العباس.

ان عبادة الله هي أبرز خصائص هذا الدين الابراهيمي - وانا اصطلح عليه بالابراهيمي كما يتسنى لكم فهمه بوضوح - . فعلى مرّ التاريخ كان ثمة دين توحيدي يدعو الى عبادة معبود واحد هو خالق كل الكون والمهيمن على كل شيء فيه وهو الذي يرسم الطريق للبشرية جمعاء ويحدد هدف التاريخ ويصوغ القيم الإنسانية على معيار محدد، وهذا الدين يقف بوجه كل الحركات الداعية لعبادة الطاغوت من أينما آدم الى النبي الخاتم والى نهاية المطاف البشري. ويدورهم يقف عبدة

الطاغوت - على اختلاف أصنافهم - بمواجهة هذه الحركة الاعتقادية التي تدعو الانسان الى الانقياد لنواميس الكون الكبرى والتسليم بأزاء الإرادة الإلهية الحقّة التي رسمت طريق الخلقة وحددت لها هدفها العظيم وغايتها القصوى متمثلة بالله! هؤلاء العبيد لا يألون جهداً بالوقوف بوجه دعوة كهذه اسمها (الاسلام)^(١) ويتعمدون وضع العراقيل في طريق أهدافها.

بيد ان هذا الدين الذي يد . الى الانقياد المطلق لإرادة الرب، هو - في الوقت ذاته وللسبب ذاته - يدعو الى الثورة والطفيان على كل ما سواه، وكل خطاب فيه الى عبادة الله بنجر تلقائياً الى نبذ عبادة الطاغوت. وعلى الجانب الآخر يحصل الشيء ذاته مع دين الشرك حيث يدعو أتباعه الى الطغيان بوجه ناموس الكون الاعظم والتمرد على الإرادة الالهية ورفض دعوة الاسلام. وذلك امتداداً لدعوته الى هروبية القوى والأقطاب الأخرى التي تجسّد بنفسها مفهوم الآلهة المتعددة.

الشرك يعني الطغيان على العبودية لله، ولكنه في نفس الوقت يعني العبودية والتسليم للأصنام (بمعناها الشامل لكل ما يتخذ البشر آلهة زوراً وتزويراً بمعونة جهل الناس وظلم الحاكمين). ان عمل

(١) القرآن يصرّح بأنّ الاسلام هو اسم لجميع الأديان الحق، فإن الدين عند الله الاسلام.

الطاغوت يتجلى في الطغيان بوجه القوة العظمى المهيمنة على عالم الكائنات، وأيضاً في التسليم بوجه (ما تحتون)، وهذه (ما تحتون) شاملة لكل ما من شأنه ان يكون صنماً يعبد من لادّ وعزى أو مأكنة ورأسمال أو دم وعرق، ان هذه جميعاً نماذج تطبيقية لمفهوم الطاغوت الذي يقف في مواجهة الله.

ومن خصائص دين التوحيد أيضاً الطابع النقدي الهجومي الثوري الذي يتصف به، وذلك في مقابل الطابع التبريري الذي يشكل السمة الأكثر بروزاً من بين السمات الأخرى لدين الشرك بمفهومه الأوسع.

ماهية الدين الثوري

الدين الثوري، هو دين يغدّي اتباعه ومعتقيه برؤية نقدية حيال كل ما يحيط بهم من بيئة مادية أو معنوية، ويكسبهم شعوراً بالمسؤولية تجاه الوضع القائم يجعلهم يفكرون بتغييره ويسعون لذلك فيما لم يكن مناسباً.

ان السمة الاساسية لهذا الدين - الدين التوحيدي - انه يتفادى تبرير الوضع القائم تبريراً دينياً ولا يؤمن بعبداً الرضوخ للأمر الواقع أو اتخاذ موقف اللامبالاة حيال ما يحيط به. لاحظوا حركة الأنبياء،

سوف يتضح لكم ان الاديان التوحيدية، خاصة في مراحل ظهورها الأولى أي فترة نقاتها عن الشوائب والتحريف، تتسم عادة بطابع رافض للوضع القائم ونزعة ثورة وتمرد على كل جور وفساد، وهذا التمرد والطغيان يأتي متصاحباً مع العبودية والخضوع لموجود الكون، والالتقاء لقوانين الوجود التي تتجلى فيها الارادة والقدرة الإلهية.

أمعنوا النظر في جميع الأديان، موسى مثلاً نهض تأثراً بوجه الاضطراب الثلاثة: قارون اكبر رأسمالي في زمانه، ويلمع بن باعورا ممثلاً لأكبر شخصية دينية انحرافية، وفرعون الذي بيده القدرة السياسية لذلك العصر.

والآن ما هو ذلك الوضع الموجود؟ انه المذلة التي طوّقت رقاب الأسباط بواسطة الأقباط، في واحدة من اجلى ممارسات التمييز العرقي حيث كان الأقباط يتصرفون مع الأسباط من منطق الشعور بالقومية والاستعلاء.

انها حركة ثورية لمواجهة وضع اجتماعي طبقي فاسد يسوّغ لبعض الطبقات استغلال الطبقات الأخرى. وتهدف هذه الحركة الى استبدال الوضع القائم بوضع آخر مثالي وتحقيق هدفٍ محدد للحياة وهو تحرير قوم من الأسر وارشادهم الى الارض الموعودة وتأسيس مجتمع يقوم على دعامة العقيدة والرسالة الاجتماعية الرافضة لعبادة

الطاغوت، والقضاء على الطواغيت الذين يبرزون شتى أنواع العنصرية والتمييز، ومن ثم اقرار مبدأ التوحيد لكي تتجلى فيه الوحدة البشرية والعدالة الاجتماعية.

ماهية الدين التجريبي

يسعى دين الشرك دائماً إلى تبرير الوضع القائم عبر ترويج المعتقدات ذات الصلة بما وراء الطبيعة ويسعى إلى تحريف الاعتقاد بالمعاد والمقدسات والقوى الغيبية ويشوه المبادئ والقائدية والدينية ليقنع الناس بأن وضعهم الراهن هو الوضع الأمثل الذي يجب ان يرضوا به لأنه مظهر لإرادة الله تعالى وهو المصير المحتوم الذي كتبه الله عليهم.

ان القضاء والقدر بالمعنى الذي نفهمه اليوم هو من مخلفات معاوية وإرث منه. فالتاريخ يروي لنا أنّ الاعتقاد بالقدر والقول بالجبر أمور ابتدعها حكام بني أمية ليلبسوا من المسلمين الشعور بالمسؤولية ويحرموهم - من خلاله - من كلّ أنواع النقد ويقتلوا روح المبادرة فيهم لأنّ الجبر يعني الانصياع إلى كل ما هو موجود والخضوع لكل ما هو كائن. في حين كان اصحاب النبي (ص) يشعرون دائماً بالمسؤولية الاجتماعية يأخذونها على عاتقهم كمهمة أساسية ودائمة.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين يتبادران إلى أذهانتنا بمعناهما المبتذل الذي لا يسعنا التحدث عنه في الأوساط الفكرية المنقفة، هما عبارة أخرى عما يستثيه المفكر الاوربي اليوم «المسؤولية الانسانية» أو «مسؤولية المبدع» أو «مسؤولية المستشف». ماذا تعني المسؤولية المبحوث عنها في الفلسفة والفن والأدب في هالنا اليوم؟ أنّها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعينه، غير أننا مسخنا معنى هذين المبدأين بحيث أصبح العمل بهما عملاً مرفوضاً ومستهجناً.

استعمار دين الشوك

ان رسالة دين الشرك وهدفه كما ذكرت آنفاً هي تبرير الوضع الموجود. ما هو المقصود من تبرير الوضع الموجود؟ نحن نجد أن أبناء المجتمعات البشرية قد صوّفوا في التاريخ إلى الشرف والوضع والسيد والعبد والمفيد والمستفيد، ونرى الشرائع والطبقات الانسانية قد قسّمت إلى فئات ذات ماء وتراب وعرق مذهبي وفئات أخرى فاقدة لكل هذه المزايا، وشعوب ذات افضلية دائمة على الشعوب الأخرى وطبقات اجتماعية مفضلة على الطبقات الأخرى وقبائل مرجحة على القبائل

الأخرى. هذه المعتقدات السائدة في حياة الناس هي في حد ذاتها جاءت لتبرّر الوضع الموجود.

يجب أن يكون هنالك تعدّد في الآلهة وتعدّد في أقاليم الالهية لكي يتحقّق ويستمرّ التعدّد الفئوي والطبقي والقبلي والعرقى في المجتمع وفي العالم.

قد يستطيع بعض الناس أن يحرموا البعض الآخر بالقوة ويحصلوا على امتيازات حقوقية واقتصادية واجتماعية غير أنّهم لا يستطيعون المحافظة على هذه الامتيازات بمنطق القوة. اننا نرى الأقوياء يحصلون دائماً على هذه الامتيازات في التاريخ ولكنهم يخفقون في المحافظة عليها.

وهنا يلعب الدين - أي دين الشرك - دوره الأساسي في حفظ هذا الوضع، وتمثّل مهمته هنا في إخضاع الناس واقتناعهم بأنّ هذا الوضع هو تجسيد لمشئته الله وارادته وأنّ انتماء الفرد للطبقة الوضيعة لم يكن بسبب وضاعة ذاته فحسب بل لأنّ ربه وإلهه وخالقه هو أدنى مرتبة من إله العرق الآخر وأقل شأنًا من ربّ الطبقة الأخرى.

قاعدة حماة دين الشرك الاجتماعية

عندما يعمّ التمييز والاختلاف الطبقي والعرقى في المجتمع يأخذ

دين الشرك على عاتقه رسالة تكريس هذا الوضع وتثبيتته. ولذا نرى في التاريخ أن مؤسسي دين الشرك والمحافظين عليه، في زمرة الطبقات الاجتماعية العالية بل قد نراهم أسمى درجة وأغنى مالا وأكثر هيمنة من الطبقة الحاكمة.

انظروا الى رجال الدين المجوس إبان الحكم الساساني ولاحظوا هيمنتهم على العائلة المالكة والعسكر.

لاحظوا القساوسة في اوربا والحاخامات في قوم بني اسرائيل والحرّة والكهنة وزعماء الدين في القبائل الوثنية في افريقيا واستراليا. انكم ترونهم جميعاً مع الهيئة الحاكمة يدأ في يد وكثفأ الى كثف، وقد ترونهم احياناً يهيمنون على الهيئة الحاكمة أيضاً.

فقد تصل نسبة الاملاك التي كانت في حوزة القساوسة في اوربا الى أكثر من سبعين بالمئة، وفي مصر الساساني كانت أملاك علماء الدين المجوس والأراضي الموقوفة على المعابد والأماكن المقدسة تزيد أحياناً على أراضي الاقطاعيين والمالكيين الكبار.

وخلافاً لما نتصور، نرى الانبياء - الانبياء الذين نعتقد نحن بهم - نراهم يقفون بحزم بوجه الاديان التي برّرت - عبر التاريخ - الوضع الظالم المهيمن على حياة المجتمعات في القرون الخالية من الناحية الاقتصادية والاخلاقية والفكرية.

العامل الرئيسي في دين الشرك

إن العامل الجذري الذي يبتني عليه دين الشرك هو الاقتصاد الذي يقوم على أساس تملك فئة قليلة من الناس وحرمان الأكثرية. وهذا العامل يحتاج إلى الدين لحفظ نفسه وإدامة وجوده وتبرير بقائه وديمومته. فإن الدين هو العامل الذي يتمتع بقدرة عالية على إخضاع الفرد واقتناعه بالذل والهوان. إن هذا الدين - أي دين الشرك - هو الذي أخذ على عاتقه دائماً مهمة تبرير الوضع الموجود. كيف؟

أولاً: بترويج الاعتقاد بتعدد الآلهة ليصدق الناس بأن تعدد الشعوب والطبقات هو أمر مرتبط بالمشيئة الإلهية وعالم الغيب.

ثانياً: ولكي يحافظ دعاة هذا الدين على الامتيازات التي امتازوا بها على الطبقات الأخرى فإنهم كانوا دائماً من دعاة الأثرة والاحتكار.

الدين الأفريقي

العوامل الأساسية لدين الشرك - كما يعدّها الإلحاديون بحق - هي الجهل والخوف والمالكية والتمييز الطبقي. إن هذه الأمور

التي يذكرها الإلحاديون هي حقائق لا يمكن إنكارها وإن قولهم: «الدين أفيون للشعوب جاء ليخضع الناس للذل والهوان والجهل والتخلف والمصير المجهول» هو قول صحيح لا يمكن إنكاره والتبيل منه.

المرجئة في التاريخ

المرجئة في التاريخ يبرزون جريمة كل مجرم في المجتمع الاسلامي. انهم يتساءلون أولاً: لماذا يضع الله الميزان يوم الحساب؟ ويجيبون على هذا السؤال: بأن الله يضع الميزان للتدقيق في حساب علي ومعاوية.

أي لو كان الله تعالى هو الحاكم والمدقق يوم القيامة، فما شأنك انت؟ وهل يعنيك من سيكون على حق ومن سيكون على باطل؟ اذن عليك ان تعيش حياتك كيفما تشاء ولا تشغل بالك بهذه الأمور التي لا تعنيك.

حركة دين الشرك

إن المسار التاريخي الذي ينتهجه دين الشرك يتم بأحد النحويين

أدناه:

الأول: الشكل المباشر الذي نلاحظه في تاريخ الأديان: أي عبادة الخرزة ثم عبادة العلامة أو الراية الخاصة ثم عبادة القوة الغيبية الخفية (مانا)^(١) ثم عبادة ارباب النعوت ثم الاعتقاد بتعدد الآلهة فالاعتقاد بالأرواح وأخيراً الاعتقاد بالله وعبادته. هذه هي سلسلة دين الشرك في تاريخ الأديان، وهي في الوقت نفسه تجسّد جوهر الاشكال الواضح الذي يرد على هذا الدين.

الثاني: الشكل الخفي الذي انتهجه دين الشرك وهو أخطر وأساء من الشكل الأول. وهذا الشكل من الدين هو الذي ألحق أفدح الخسائر بكيان الإنسانية ووجه الحقيقة على مر التاريخ.

ففي هذا الشكل يختفي الشرك وراء نقاب من التوحيد.

عندما يبعث الانبياء الداعون الى التوحيد، ترى دين الشرك يتصدى لهم ويقف في وجههم وعندما ينتصر الانبياء في هذه المواجهة، تستمر حياة دين الشرك وانتصاره وخلفائهم بشكل خفي. فانتا ترى بلعم بن باعورا الذي هزم في مواجهة موسى يظهر على شكل الحاخامات في دين موسى وعلى شكل القريسيين الذي قتلوا عيسى (ع). فالطبعة التي جالبت عيسى (ع) وتواطأت مع قيصر ملك الروم الوثني للقضاء على دين التوحيد واتباعه هي نفسها التي كانت تتقف في وجه

(١) المانا: قوة تأثير غيبية في أديان الديانة المانوية وهي ديانة قريبة من الزردشتية.

موسى (ع)، السامري وبلعم بن باعورا ظهرا في التاريخ مرة أخرى غير انهما ظهرا هذه المرة بزي القساوسة الذين ارتكبوا باسم الدين في القرون الوسطى جرائم يبيض وجه المغول والتشر. لقد سجلوا تلك الجرائم باسم الدين - الدين الذي يبتني على الحب والولاء والوفاء والصبر والعفو والمحبة - وباسم عيسى - مظهر السلام والعفو والشفقة في التاريخ - هل كان هؤلاء انتصاراً لدين عيسى (ع) حقاً؟ هل هؤلاء هم الحواريون؟ أم انهم انتصار دين الشرك والقريسيين بعينهم ظهوروا هذه المرة بزي القساوسة لكي يتسللوا إلى دين موسى من الداخل ويعيدوه إلى حظيرة الشرك؟ وقد فعلوا!

اذن فالكلام الذي اطلق في القرن التاسع عشر بأن الدين هو أفيون للشعوب وأنه جاء ليرؤض الناس على الحرمان والشقاء في هذه الدنيا باسم الاعتقاد بما بعد الموت ويقنعهم بأن كل شيء يحدث هو من عند الله ويمشيته وأن كل محاولة لتغيير هذا الوضع هي مخالفة لإرادة الرب ومشيته وعصياناً لأمره، هو كلام صحيح بحد ذاته، وكذلك قول علماء القرن الثامن عشر والتاسع عشر بأن الدين هو وليد جهل الناس وعدم اطلاعهم على الحقائق والعلوم أو قولهم: «ان الدين هو وليد مخاوف الناس» أو قولهم: «ان الدين وليد التمييز والحرمان في عهد الاقطاع».

ولكن أي دين هذا؟ أنه الدين الذي هيمن دائماً على التاريخ -

سوى حقب زمنية قصيرة لمعت كالبرق ثم انطفأت .. انه دين الشرك
 منهما كانت اسماؤه ومسمياته، حتى لو سمي بدين التوحيد أو دين
 موسى أو دين عيسى أو اصطلاح عليه بخلافة النبي أو خلافة بني العباس
 أو خلافة اهل البيت أو غير ذلك من الاسماء والمسميات. انه دين شرك
 ودعاة هذا الدين مشركون جاؤوا بلباس الدين وباسم الدين والجهاد
 والقرآن . ألم يرفع اتباع هذا الدين القرآن على رؤوس الرماح؟ ان
 الذين رفعوا القرآن على الرماح هم القريشيون انفسهم الذي جاهاوا نبي
 الاسلام للبقاء على عبادة اللات والعزى . إلا أنهم لم يقدرُوا على حفظ
 ذلك الوضع فتسللوا بين صفوف المسلمين ليرفعوا القرآن على الرماح
 ويضربوا علياً تلك الضربة القاضية، تلك الضربة التي ضربوا بها الله
 والرسول.

لقد حكم دين الشرك باسم الاسلام وباسم خلافة الرسول وآله
 وباسم القرآن كما حكم في القرون الوسطى باسم عيسى وموسى اللذين
 ارسيا دعائم دين التوحيد في التاريخ.

ان الدين التبريري والدين التخديري والدين الرجعي والدين
 الذي لا يهتم بأمور الناس هو الذي حكم المجتمعات البشرية عبر
 التاريخ . اذن لابد أن تصدق الذين قالوا ان الدين هو وليد المخاوف
 والاقطاع وانه تخديري ورجعي لأنهم استنبطوا ذلك من التاريخ، غير
 انهم لم يعرفوا الدين حق معرفته لأنهم لم يكونوا متخصصين بمعرفة

الدين بل كان حقل تخصصهم التاريخ وكل من يراجع التاريخ يرى هذه
 الحقيقة متجلية في الأديان جميعاً، سواء تلك التي حكمت باسم دين
 التوحيد أو تلك التي حكمت بصراحة باسم دين الشرك.

لقد قارنت جميع الصفات والاسماء المرادفة للفظ الجلالة «الله»
 في الأديان الابراهيمية وفي اديان الشرك أيضاً ورأيت ان هذا الدين -
 اي دين الشرك - هو حقاً وليد خوف الناس وجهلهم. لماذا؟ لأن اتباع
 هذا الدين (اي اولئك الذين يروجون دين الشرك) يخشون دائماً نقطة
 الناس وعيهم. أنهم يريدون ان تكون العلوم والمعارف مقتصرة على
 الأشياء الثابتة والدائمة ويكون هذا أيضاً خاصاً بهم ولا يبيحوا بسرّه
 لغيرهم. وذلك أن دين الشرك سيتلاشى بتطور العلم واتساع رقعة لأنه
 يقوم على اساس الجهل والامية . فاذا وعى الناس ونشطت روح
 الانتقاد فيهم وطالبوا بالعدالة والقسط وانبعث الامل في نفوسهم
 ستتزلزل أركان هذا الدين. هذا الدين كان على مر التاريخ محافظاً على
 الوضع الموجود، وكانت هذه مهمته قبل عهد الاقطاع وبعده، في شرق
 العالم وغربه.

ان الصفات والأسماء الالهية كالهية والهيمنة والجبروت تترجم
 وتفسر في اديان الشرك دائماً بمعناها الاستبدادي في حين نجد جميع
 الاسماء والصفات القديمة في الأديان الابراهيمية حتى تلك التي يرجع
 تاريخها الى أكثر من ألفين أو ثلاثة آلاف سنة تتبقي من أحد أمرين:

الأول: المشق والجمال وعبادة الجلال والجمال المطلق.

الثاني: الابوة، السيادة، الكرم، الحكومة والحماية. وعليه، فمن يزعمون بأن الدين الذي حكم العالم عبر التاريخ هو وليد جهل الناس وخوفهم من الكوارث الطبيعية، كلامهم صحيح بحد ذاته.

لقد كانت الأديان الإبراهيمية وليدة رغبة الإنسان وحاجته إلى هدف معين وحكومة خاصة وميله الفطري إلى الخضوع والخشوع أمام الجمال والكمال والجلال المطلق. فقد كانت هذه الأديان تلبي جميع حوائج الإنسان - النفسية والفلسفية والاجتماعية - وقد تصدى أنبياء هذه الأديان - الأديان الإبراهيمية - لجميع القوى الحاكمة سواء المادية منها أو الاجتماعية أو المعنوية وحطّوا جميع الأصنام سواء الأصنام المنطقية - كما يستهينها فرانسيس بيكون^(١) - أو الأصنام المجسّمة أو الأصنام الأخرى، الاقتصادية منها أو المادية، وقد تصدّى هؤلاء الأنبياء لجميع مظاهر دين الشرك - الدين التبريري - ونهضوا بمسؤولية تغيير الوضع الموجود داعين أتباعهم إلى استبدال هذا الوضع بالعدالة

(١) ولد في ستراند، على مقربة من لندن عام ١٥٦١ وتوفي في لندن عام ١٦٢٦، وضع دائرة معارف واسعة بنيت على أساس الملاحظة التجريبية والمنهج الاستقرائي، ورمّت في التحليل الأخير إلى وضع الطبيعة في خدمة الإنسان. له العديد من المؤلفات منها: «في حكمة الأقدمين»، «مقدمات للتاريخ الطبيعي والتجربي». انظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، ص ٢٢٦. (المترجم)

والقسط. وقد أكد القرآن هذا الأمر مشيراً إلى أنه الهدف الاسمي من بعثة الأنبياء والرسول. فالمقصود من إقرار العدالة والميزان والقسط هو تغيير الوضع الموجود لامتداهته. وأريد أن استنتج هنا أن الدين لم يقف بوجه اللاحاد بقدر وقوفه بوجه الدين. بلى، كان الدين على مرّ العصور في صراع دائم مع الدين نفسه، لقد وقف دين التوحيد الذي يركز على وعي الإنسان وبصيرته وعشقه وحاجته الفلسفية الفطرية بوجه دين الشرك المنيق من جهل الناس وخوفهم، ولهذا نرى دين التوحيد ديناً ثورياً على مرّ التاريخ فكّلماً نجح دين الشرك التبريري في تحريف الدين الأصلي والتلاعب بعقائد الناس ظهر نبي إبراهيمي جديد يدعو الناس إلى أتباع القوانين الإلهية العامة التي تعكس إرادة الله تعالى، ولذلك نرى أن دين التوحيد يتّسم دائماً بنزعة التمرد والانكار والرفض والمواجهة.

الله والناس

في التوراة والانجيل (في بعض الأجزاء التي سلمت من التحريف) وفي القرآن أيضاً، نرى الله تعالى والناس في جبهة واحدة. أي أننا نستطيع استبدال كلمة الله بكلمة الناس أو كلمة الناس بكلمة الله في جميع الآيات القرآنية التي تعالج المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية - لا المسائل الفلسفية والعلمية - مثال ذلك الآية الكريمة:

«أن تقرضوا الله قرضاً حسناً...» فهل تعني هذه الآية أن الله يحتاج إلى من يقرضه قرضاً حسناً وهو الغني عن العالمين ! كلا، بل إن المقصود من الله في هذه الآية هم الناس، وهذا التقارن مشهود في جميع الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تعالج المسائل والاتجاهات الاجتماعية، والمراد إثبات أن الله تعالى والناس يقفون في صف واحد وجهة واحدة.

اتباع الطاغوت

وفي الجبهة المقابلة يقف اتباع الطاغوت. من هم اتباع الطاغوت؟ أنهم أولئك الذين يعبر عنهم القرآن بـ«الملا» وهم المترفون الذين يملأون العين ويشغلون المناصب والمواقع المهمة في مجتمعاتهم ولا يلتزمون بمسؤولياتهم وواجباتهم.

الدين الذي حكم التاريخ هو دين الملا والمترفين، وكانت حكومة هذا الدين تتراوح بين الحكم المباشر والصريح، والحكم تحت غطاء «دين الله والناس».

أما دين التوحيد فإنه لم يتحقق في أي برهة من التاريخ، ويكفي الشبهة فخراً أنهم رفضوا الحكومات المستترة باسم الاسلام والتي حكمت في القرون الوسطى اعتقاداً منهم بأن عمل هذه الحكومات هو

نهب امبريالي وأن هذا الحكم هو اقرب الى حكم كسرى وقيصر منه الى خلافة رسول الله (ص).

أذن فالدين الابراهيمي هو الدين الذي ظل يواجه دائماً دين الطاغوت والملا والمترفين ويدعو الناس الى النهوض والتمرد على جبهة (الملا) ويبشرهم بأن الله تعالى معهم وفي صفوفهم.

خطاب هذا الدين موجه للناس وهدفه اقرار العدالة ونشرها.

هذا الدين وليد وعي الناس وحاجتهم الماسة الى العشق والعبادة والوعي، غير أنه لم يتحقق عينياً في التاريخ، بل ظل على شكل نهضة انتقادية عارمة تقدت التاريخ ولم تتحقق فيه بشكل كامل قط. وأن الدين الذي هيمن على التاريخ هو دين الشرك - دين الطاغوت والملا والمترفين - الدين الأفيوني الذي أخذ على عاتقه مسؤولية تبرير الوضع الموجود.

أود أن أقول لأولئك المفكرين الذين يسألونني دائماً: «أنت بصفتك مفكراً كيف تركز على الدين الى هذا الحد؟» أنني عندما اتحدث عن الدين فإني لا اتحدث عن الدين الذي كان مهيمناً على المجتمعات في الماضي بل اتحدث عن دين كان هدفه الوقوف بوجه الدين المهيمن على المجتمعات عبر التاريخ. أتني اتحدث عن دين بعث انبياءه لمقارعة دين الشرك بجميع أشكاله، بيد أن هذا الدين لم يتحقق في الماضي بشكل كامل وأن المسؤولية التي تقع على عاتقنا اليوم هي

السعي لتحقيق هذا الدين في المستقبل، وهذه المسؤولية هي مسؤولية الإنسانية جمعاء. فاهتمامنا بالدين ليس رجوعاً إلى الوراء بل هو مواكبة لحركة التاريخ.



يَبْتَ في بداية هذا البحث مقصودي من عنوان هذا المقال «الدين ضد الدين» واستعرضت في حديتي الفكرة التي توصلت إليها أخيراً (وإن لم يكن هذا الاكتشاف اكتشافاً علمياً أو فلسفياً معقداً بل هو شيء بسيط غير أن الكثير من الأمور البسيطة التي لا تنتبه إليها تعود علينا بنتائج سيئة جداً).

ذكرت في حديتي أن الدين لم يصارع الكفر والالحاد - بالمعنى الذي يتبادر في ذهننا - وذلك أنه لم يكن في الماضي أي مجتمع الحادي أو طبقة الحادية غير دينية، والتاريخ يشهد لنا بأن الناس على مرّ العصور كانوا متدينين دائماً في مسارهم الاجتماعي التاريخي. وقلت أيضاً أن المجتمعات البشرية بكلّ أصنافها وبدون استثناء كانت مجتمعات متدينة في جميع مراحل التاريخ، أي أن الدين كان الأساس الفكري والثقافي لكلّ المجتمعات في طول التاريخ، بحيث لو اردنا اعداد تحقيق عن التاريخ الحضاري والثقافي لمجتمع ما نجد أن تحقيقاً قد تبدّل بشكل عفوي إلى تحقيق عن الحضارة الدينية أو

الثقافة الدينية لذلك المجتمع.

فهل يمكن التحدث عن الحضارة الهندية بدون التطرق إلى الدين الودائي والبوذي والاذعان بأن هذه الأديان هي المحور الرئيسي والجوهر الأساس في هذه الحضارة المعطاءة؟ وهل يمكن التحدث عن الحضارة الصينية بدون التطرق إلى لائتسه وكنفشيوس واعتبارهما المحور والجوهر لهذه الحضارة العريقة؟

أذن نحن نعلم أن البشر كانوا متدينين على مر التاريخ^(١) وإنّ البشر لم يكونوا معتقدين بالدين فحسب، بل كانت حياتهم تركز على قاعدة دينية، ولم يكن الدين مهتماً في مضامير الثقافة والاخلاق والمعنوية والفلسفة فحسب بل كانت الهيئة المادية والاقتصادية وحتى الطابع المعماري في المدن القديمة دينياً أيضاً.

وقلت أيضاً: إنّ العمران في أغلب المدن القديمة هو عمران رمزي فائتاً نجد ابنية المدينة تحيط بمعبدها، كون المعبد رمزاً لتلك المدينة. فكما نرى اليوم برج ايفل رمزاً لمدينة باريس، كانت المعابد رمزاً للمدن في الماضي فقد كان معبد «دلفي» مثلاً رمزاً لمدينة اثينا في الحضارة اليونانية.

ولنا أن نتساءل: ما هو الفكر والواقع الاجتماعي الذي وقف

(١) التاريخ بمعنى قصة حياة الانسان الاجتماعية لا بالمعنى المصطلح.

بوجهه انبياءنا المؤسسون لهذه النهضة التاريخية الممتدة من آدم (ع) الى خاتم الانبياء (ص)؟ ومن هم الذين وقفوا في وجه هؤلاء الانبياء وهذه الاديان الابراهيمية الحقّة؟

نعلم أنّ «الكفر» هو جواب جاهز لهذه الأسئلة، لكنّ الكفر لا يعني عدم التدين بدين خاص، بعبارة أخرى أن الانبياء لم يأتوا ليدعوا الناس الى أصل التدين والشعور الديني ولم يأتوا لتبليغ العبادة في المجتمعات البشرية لأنّ العبادة والشعور الديني والاعتقاد بالغيب والايان بالله أو الآلهة كان سائداً في جميع الأقوام والمجتمعات التاريخية. وإذا لاحظنا بعض «الزندقة» أو «الدهريين» يقفون بوجه الانبياء - وقلّما نجد ذلك لأنّ هؤلاء وقفوا في الغالب بوجه الفلاسفة وزعماء الدين - فأننا نراهم يعتقدون مبدأ دينياً بشكل آخر أو باعتبار آخر أي أنهم كانوا يؤمنون بالقوى الغيبية وبما وراء الطبيعة. ثم أنّ الدهرية والزندقة هي ظاهرة متأخرة جداً من حيث الزمن أي أنها تتعلق بمراحل التطور الفكري والفلسفي والعقلي في تاريخ البشر، وأن الذين كانوا يشككون في الدين والمقائد الدينية هم من النوادر، ولم تدخل الزندقة في مجرى التاريخ ولم تصنع كياناً يختص بها في أيّ من حقبة التاريخ.

إن تاريخ البشر هو عبارة عن تاريخ المجتمعات الانسانية في جميع المراحل الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والثقافية

والحضارية التي كانت دينية دائماً، وأنّ انبياءنا بدأوا هذه النهضة الدينية على ضوء حاجة مجتمعاتهم ومقتضى ظروفها الخاصة. وأنّ الذي وقف دائماً في وجه هؤلاء الانبياء وسعى دائماً الى تحريف مبادئهم هو «الكفر» لا الزندقة والالحاد.

صفوة القول، أنّ الدين - بالمعنى الذي نفهمه نحن - كان في صراع دائم مع الدين وأن رسالة الانبياء ومحور دعواتهم يتمثل في الصراع مع الكفر، لا الصراع مع الزندقة والالحاد. إذ الزندقة لم تكن سائدة في تلك المجتمعات. وهنا لابدّ لي أن اشير الى أنّ هذا الاستنتاج هو استنتاج قرآني لحسن الحظ:

دين الكفر ودين الاسلام

يأمر الله تعالى النبي (ص) أن يقول للكافرين الذين ناهضوا الاسلام بمعناه الأعمّ وحاربوا ابراهيم وموسى وعيسى (عليهم السلام): ﴿قل يا ايها الكافرون لا اعيد ما تعبدون﴾ لاحظوا التكرار والدقة في هذه السورة كل ما اريد أن أقوله، موجود فيها: ﴿لا اعيد ما تعبدون﴾، اذن الخطاب موجه للكافرين لا الزنادقة. المسألة ليست مسألة صراع بين العمودية والزندقة وإنما الصراع بين العمودية والعمودية وأنّ الذين ناوؤوا نبي الاسلام لم يكونوا من الزنادقة (الذين لا يؤمنون بوجود إله)

بل كان عدد آلهتهم أكثر بكثير من إله الإسلام الواحد، «ولا أنتم عابدون ما أعبد» وهذه الآية لا تختلف في المعنى عن الآية السابقة إلا أن القرآن يكرر هذا المعنى لأنه يريد ترسيخ هذا المبدأ في أدمغتنا وعقولنا، «ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد» إنه يعيد ويكرر المفهوم نفسه. وفي آخر السورة يعلن النص التالي شعاراً لهذه النهضة: «لكم دينكم ولي دين»، ومعنى هذا أن الصراع على طول التاريخ هو صراع بين الدين والدين وليس بين الدين والزندقة.

هيمنة دين الكفر على التاريخ

ذكرنا في القسم الأول من حديثنا أن دين التوحيد ودين الكفر كانا في صراع دائم في التاريخ وتساءل الآن: «من كان المنتصر في هذا النزاع؟» في الحقيقة أن النصر كان حليفاً لدين الكفر دائماً. ويكفي لاثبات ذلك نظرة عابرة إلى تاريخ المجتمع البشري.

إن أنبياءنا - الأنبياء الذين نعتقد بحقايتهم - لم يستطيعوا أن يطبقوا دينهم بشكل كامل ومشود في أي مجتمع وفي أي برهة من التاريخ.

لقد كان هؤلاء الأنبياء يظهرون على شكل نهضة وثورة وتسمّد على الدين الحاكم، إلا أن جبر التاريخ - الذي كان في أيدي الكافرين -

ودينهم - الذي كان يبرر الوضع الموجود - كانا يفرضان استمرار حكومة الكفر وبقاءها، وبما أن السلطة سواء الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية - كانت بأيديهم دائماً، لذا لم يستطع دين الحق أن يتجسد بشكل واقعي في أي مجتمع منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا.

ما هو هذا الدين ومن هم هؤلاء؟ من أجل أن نضع اسماً لهذا الدين ولكي يكون كلامنا أكثر بساطة وشفافية يمكننا أن نقبّس من النصوص الدينية أسماء وصفات عديدة. إلا أن هذه الأسماء قد تكون أكثر مناسبة من غيرها:

هو «دين الناس» من زاوية المخاطب وهو «دين الله» من حيث محور الدعوة وروحها وجهتها. الدين الذي وقف دائماً بوجه الدين الموجود وحمل راية الصراع في كل زمان ومكان هو الدين الذي كان محور خطابه «الناس» وكانت دعوته دعوة إلى «الله». إن هذا الدين - إذن - هو دين «الله والناس».

العمال مال الناس

لو راجعنا القرآن لرأينا في أول نظرة أن القرآن يستبدى بكلمة «الله» ويختتم بكلمة الناس. ونرى أيضاً أن مخاطبي هذا الكتاب هم الناس دائماً.

ان دين «الله والناس» - أي الدين التوحيدي - يفصل وجود الله وذاته عما سواه وهما الانسان والطبيعة - خلافاً لما تراه نظرية وحدة الوجود الهندسية - ولكن «الله» و «الناس» في هذا الدين يتقنون في صف واحد وجبهة واحدة من حيث المكانة والجهة الاجتماعية، بحيث اننا نستطيع استبدال كلمة «الله» بكلمة «الناس» وبالعكس في جميع الآيات التي تتعلق بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية والمسائل المتعلقة بالحياة. مثلاً: «مال الله»، فكلمة الله في هذه العبارة تختلف عن معناها الوثني القائل بحاجة الله الى التملك والثروة والذي يفرض على الناس ان يدفعوا مبلغاً من اموالهم - نذراً او هدية - الى المعبد أو صاحبه!

ان معنى هذه العبارة هو ان «المال للناس»، وهذا التفسير ليس تفسيراً خاصاً بي فأكون قد فشرته برأيي متأثراً بالعوامل الفكرية السائدة في عالم اليوم، بل هو ذات التفسير الذي أفهم به أبو ذر معاوية بقوله: «انك تريد ان تأكل مال الناس يدعوى ان المال مال الله وانك خليفة الله في ارضه ويحق لك ان تأكله او تهبه لمن شئت». يريد أبو ذر أن يقول لمعاوية ان مال الله هو مال الناس وليس مال الملائكة.

ان «مالكية الله» تعني «مالكية الناس» لأن الله والناس في صف واحد: «الناس عيال الله» ومن المسلم ان يكون المعيل والعيال في صف واحد.

عيال الله

ويقف مقابل عيال الله الملائة والمترفون وأولئك الذين تسلطوا على رقاب الناس وسيطروا على ثرواتهم وسلبوا منهم حق تقرير مصيرهم الاجتماعي والاقتصادي. وقد كان هؤلاء الملائة والمترفون اصحاب دين ولم يكونوا ماديين ووجوديين أو زنادقة، كانوا يعبدون الله (أو الآلهة).

دعم التمييز الطبقي والعنصري

ذكرت في القسم الأول ان الشرك لا يحمل معنى فلسفياً فحسب بل انه يعني «تبرير الوضع الموجود». فما هو الوضع الموجود في التاريخ؟ انه الشرك الاجتماعي.

والآن ما هو الشرك الاجتماعي؟ انه يعني وجود اصنام متعددة بعدد الطبقات والفئات والأعراق والقبائل في المجتمع. فقد كان لكل شعب وعرق وقبيلة صنم أو إله خاص، وكانت عبادة هذه الاصنام تعني الاعتقاد باصالة هذه الشعوب والطبقات والفئات المستوعبة وضمان حقوقها وامتيازاتها الخاصة، بينما يصرح دين التوحيد أنه لا إله الا الله ولا خالق ولا معبود سواه وان الرب والخالق هما مفهوم واحد.

الرب والخالق

تعتقد الأديان جميعاً بأن الله هو خالق الكون. غير أننا نجد الاصنام تتعدد عندما نتطرق إلى مفهوم الربوبية. فجبارة التاريخ كفرعون ونمرود لم يدعوا الخلق وإنما كانوا يدعون أنهم أرباب للناس، فالرب هو صاحب المالك ولا يعني الخالق.

كان فرعون يقول: «أنا ربكم الأعلى» أي أنا صاحبكم ومالككم ولم يقل أنا خالقكم وبارئكم.

لقد كانت أديان الشرك جميعاً حتى الأديان اليونانية تعتقد بالله في مسألة الخلق إلا أننا نجد آلهة متعددة أخرى تظهر فيما بعد تحت عنوان «أرباب الناس». لماذا؟ لتحقيق مختلف أنواع واشكال الهيمنة وزرع بذور الاختلاف والفرقة بين أفراد البشر أو بين فئات المجتمع الواحد بقية تصنيف المجتمع إلى طبقات عديدة وفئات متضاربة بين حاكم ومحكوم ومتختم ومخروم.

المدينة المنورة رمز المجتمع المثالي

ذكرت في القسم الأول من هذا البحث أن «دين الله والناس» كان على مر التاريخ على شكل نهضة كفاح ونضال ضد الواقع المهيمن ولم

يكن على شكل دين يبني المجتمع على أساس مبادئه. فأننا لا نجد في التاريخ البشري مجتمعاً قد بني على أساس هذا الدين سوى مجتمع المدينة المنورة في حياة رسول الله (ص) ولم يكن هذا المجتمع حقيقة تاريخية في مرحلة معينة بل كان على شكل رمز مثالي - كما ذكرت آنفاً -.

إن عمر هذا المجتمع لا يتجاوز العشر سنوات مقابل خمسين ألف سنة من التاريخ، فقد حكم دين الشرك في المدينة على مر التاريخ تارة باسم دين التوحيد وأخرى باسم دين الشرك ولكن الفرصة لم تسنح لدين «الله والناس» إلا في هذه السنوات العشر ليعني نظاماً اقتصادياً واجتماعياً وتربوياً وينظم العلاقات الفردية والاجتماعية والفئوية والطبقية والعرقية وكذلك العلاقات بين الاقلية والاغلبية على أساس دين «الله والناس».

لقد استطاع هذا الدين أن يبني هيكليته هذا النظام غير أنه لم يتمكن من تطبيقه بشكل كامل، لأن الإنسان لا يستطيع أن يطبق نظاماً يبتني على أساس رسالة تتغلب على التاريخ في عشر سنوات فقط. وقد لمسنا ذلك تاريخياً، فإن سكان المدينة لم يقدروا على تغيير تربيتهم الفطرية والاجتماعية التي تبتني على أساس الجاهلية في مدة عشر سنوات ولم يستطيعوا المحافظة على ذلك النظام العظيم. ورأينا أيضاً عدو هذا النظام وهو يسيطر على كل شيء مرة أخرى

بعد مرور عشرين سنة فقط .

اذن نستنتج هنا ان النظر الى التاريخ بهذا الشكل وان ايمان النظر فيه بهذه الطريقة سينتهي بنا الى العدول عن كثير من التصورات التي رسمت في اذهانتنا عن التاريخ والدين والزندقة وعن المفكرين والالهاديين والمتدينين في الماضي والحاضر، وهكذا بالنسبة للعلاقة بين العلم والحضارة والعلاقة بين الماديين والدينيين.

وعلينا ان نعطي الحق لمفكرَي القرنين السابع عشر والثامن عشر وكذلك القرن التاسع عشر حيث قالوا: «ان الدين كان أفيوناً للشعوب على مرّ التاريخ» لأن هؤلاء وضعوا الدين الذي كان مهيمناً على التاريخ وعلينا ان نؤيد مزاعم من قالوا: «انّ الدين هو عامل لتبرير السلطة الاقتصادية والاجتماعية التي تتمتع بها الاقلية ضد الاغلبية في التاريخ» انهم على حق لأنّ الدين كان يبرّر الوضع الموجود في عهد الاقطاع. ونرى هذه الحالة في كل المجتمعات وفي كل المراحل التاريخية التي نجد فيها شكلاً من اشكال الحكومة والاقتصاد، فلقد كانت مهمة الدين تبرير الوضع الموجود عبر استغلال العقائد الدينية الراسخة في فطرة الناس.

وما أكثر النماذج التي تؤيد هذا الكلام، فما عليكم إلا ان تختاروا حقبة من التاريخ لتلاحظوا الطريقة التي كان ينتهجها الدين في تلك الحقبة التاريخية. ولندرس هذه الحالة في ايران مثلاً:

الدين في ايران

حكم الدين على المجتمع الايراني في العهد الساساني بشكل مباشر، فقد كان الملوك والامراء في هذا العهد يخضعون بشكل كامل لعلماء الدين والمعابد وكان النظام الطبقي سائداً في هذا المجتمع على النحو الذي لا يستطيع فيه أي شخص من الطبقة السفلى الارتقاء الى طبقة أعلى بأيّ حيلة أو معجزة.

الطبقة الأولى والطبقة الثانية

تقع العائلة المالكة والنبلاء في الطبقة الأولى في العهد الساساني والى جانبهم رجال الدين - موبدان - في الطبقة الثانية، وكانت السلطة في هذا العهد تتراوح بين هاتين الطبقتين فتارةً تسيطر الأولى على الثانية وأخرى بالعكس .

يبد أنهم كانوا جميعاً من الملأ والمترفين الذين لا همّ لهم سوى استثمار الناس واستغلالهم فلا فرق بين هاتين الطبقتين سوى أنّ الأولى - العائلة المالكة والاضراف تستثمر الناس بالقوة، والثانية - رجال الدين - تنهب ثروات الناس بالتبرير الديني، ولذا نرى ثروات الناس دائماً في أيدي هاتين الطبقتين ونرى القسم الأكبر منها أحياناً في يد رجال الدين كما يقول آلبر ماله: «كان سهم رجال الدين المسجوس ثمانية عشر سهماً من اصل عشرين سهماً».

الطبقة الثالثة

تشتمل هذه الطبقة على الصّاع وأصحاب الحرف والعسكر والمزارعين وهي طبقة محرومة من كل مفخرة وليس لها أي حق اجتماعي لأنها تنتمي إلى عرق نجس! - كما هو متعارف في الهند -.

ينقل الفردوسي^(١) عن «رستم فرخزاد»^(٢) قوله: لو أتى الاسلام نساوي بين السيد والعبد واخلط الاعراق وَلَطَّخَ فضيلة الحسب والنسب، لَأَنَّ الحسب والنسب لا يمكن أن يكونا ملاكاً للفضيلة في الاسلام ويحق للعبد والسيد على حد سواء أن يتصدى لمسؤولية القيادة والحكم في المجتمع الاسلامي».

إن هذه الألفاظ التي أراد الفردوسي أن يعبر بها الاسلام تعدّ من أكبر المفاهيم وأبهى الشعارات المرفوعة في عالمنا اليوم.

كان الدين يبرّر وجود التمييز الطبقي في العهد الساساني . وذلك ان الجباية لم يكونوا قادرين على ذلك لأنهم لا يجيدون الفلسفة والتبرير ولا يعلمون شيئاً عن ما وراء الطبيعة ويلجأون إلى القوة فقط .

إن ابن الاسكافي في العهد الساساني يحرم من الدراسة . لماذا؟!

(١) شاعر إيراني كبير عاش في القرن الرابع الهجري وكتب ملحمة «الشاهنامه» .
(٢) قائد القوات الإيرانية في معركة القادسية .

لأنه لو أكمل دراسته سينتمي إلى طبقة الكتاب وهي طبقة أخرى أسمى من طبقة الوضعية. إذن يجب أن يبقى ابن الحذاء هذا حذاءً هو وابناؤه واحفاده إلى ابد الدهر حتى لو كان من التوابغ. إن عليه حينئذ أن يستخدم نبوغه في صناعة الأحذية فقط .

رجال الدين المجوس وتبرير التمييز الطبقي

دأب رجال الدين المجوس على تبرير التمييز الطبقي والفوارق الطبقية في العهد الساساني. كان هنالك ثلاثة أنواع من النار المقدسة وتعد كل واحدة من هذه النيران الثلاثة مظهرًا من مظاهر (آهورا مزدا)^(١):

١- نار «كشنسب» في آذربايجان.

٢- نار «برزين مهر» بالقرب من مدينة سبزوار.

٣- نار «استخر»^(٢) في فارس (بالقرب من مدينة شيراز).

هذه النيران الثلاثة من مظاهر آهورا مزدا إلا أن آهورا مزدا نفسه

(١) مركبة من (آهورا) خالق الروح والحياة و (مزدا) : صفة آهورا . كما ان (مزدا) مركبة من (مه) وتعني عظيم و (زدا) وتعني العالم المطلق . وهو إله الخير عند المجوس .

(٢) اسم حصن في فارس . وسُمّي بذلك لأنّ فيه مسجداً عظيماً .

يتبع النظام الطبقي أيضاً. فالتار الموجودة في آذربايجان هي للملوك والاسرة المالكة، والتار الموجودة في فارس خاصة برجال الدين، والتار الموجودة في القلعة القريبة من سبزوار - برززين مهر - هي للمزارعين والفلاحين وأصحاب الحرف.

إن آهورا مزدا لا يحمل وجهاً واحداً وناراً واحدة حتى في دين المجوس الذي تتحد فيه آلهة الجمال والخير ويعبد الناس الهماً واحداً (آهورا مزدا) ويصارعون عدواً واحداً (اهريمين)، فالتار المقدسة تبرز وجود الاختلاف بين هذه الطبقات الثلاثة وتوحي بعدم إمكانية اندماج هذه الطبقات لأنها متباينة وليست متشابهة، وهذا الاختلاف والتباين من وجهة نظرهم هو انعكاس لإرادة آهورا مزدا لأنه هو الذي شاء أن يكون ذلك مثلما شاء أن تكون النار مقدسة.

وهكذا نرى آهورا مزدا يثبت هذا التالوث الطبقي في المجتمع لكي يوحى للفلاح أن إلهه الخاص وناره المقدسة هي الموجودة في مدينة سبزوار وليست في فارس أو آذربايجان وأن النيران الأخرى لا تنفعه ولا تضره، بل لا تفضله ولا تعنيه أصلاً.

وفي الهند أيضاً عندما يريد بوذا التحدث عن الإله أو الآلهة أو عندما يريد الانفصاح عن شعور عظيم أو الكشف عن فكرة سامية، يقول: هذه طريقة آرية أو هذه فكرة آرية ويقصد بذلك أنها تختص بالعنصر الآري أي العنصر النجيب الأصيل وإنها لا تتعلق بالطبقات

النجسة الأخرى التي حكم عليها بالنجاسة لأنها لا تنتمي لهذا العنصر. لقد كانت الانظمة الطبقيّة والمنصريّة والعرقية تستولي على كل شيء حتى على مقدسات الانسان وأفكاره الدينية وكان الدين يبرر دائماً هذه الفوارق الطبقيّة مستغلاً بذلك تخلف الناس الفكري والفلسفي.

وعندما نلاحظ تصريحات بعض الفلاسفة كأرسطو وأفلاطون بأنّ العبد يولد عبداً وأن السيد يولد سيّداً وأنّ الأسر الشريفة تتمتع بعرق شريف وأنها محصورة مثلاً في مدينة (أثينا) في عشرين أسرة فقط (لا أكثر ولا أقل)، فإننا نرى ذلك يحصل في زمن كان الناس يعيشون فيه تحت هيمنة الدين.

لقد كان دين «الملاء» ينتج الأفيون للمجتمع بإنتاجه لمواعظ من هذا القبيل: «أنتم لستم مسؤولين لأنّ كل ما يحصل هو حاصل بإرادة الله ومشيته»... «لا تشكوا من الحرمان ولا تتألموا فإنكم ستجوزون في مكان آخر»... «اصبروا على كل شيء لكي يضاعف الله لكم الأجر». هكذا كانوا يخدمون احتجاج الفرد ويجمدون حركته الإرادية.

كان الجبابرة يستخدمون العنف في مواجهة الناس واخماد ثوراتهم. لكنّ الدين كان ينتهج طريقة أخرى في وأد النهضة وردّ الانتقاد واخماد ثائرة الغضب والاحتجاج وهي تبرير الموقف بطريقة كهذه: «إنّ كل ما حصل قد حصل بعشيرة الله، فأني احتجاج واعتراض

سيكون بمنزلة الاحتجاج على الله ومشيئته».

وعلى الضفة الأخرى يقف دين الحق في مقابل هذا الدين التخديري التبريري الماكر الذي سلب من الناس شعورهم بالمسؤولية وبرز التمييز الطبقي والعنصرية في المجتمعات عبر التاريخ.

أنبياء دين التوحيد

دين التوحيد هو دين الانبياء الرعاة، الانبياء العمال، الانبياء الذين عجن الحرمان والجوع في طبيعتهم، أولئك الذين وصفهم نبينا (ص) بأنهم كانوا جميعاً من الرعاة، وقد وقف دين هؤلاء الانبياء دائماً بوجه دين الطبقة الحاكمة، دين القساوسة والرهبان والسحرة. إن دين عبادة الطاغوت الذي كان يتمتع بكل شيء طوال التاريخ كان بدوره آله في يد الطبقة الحاكمة لاستثمار الطبقات السحيقة وقمعها واقتاعها، ولقد ظهر هذا الدين بشكله الجلي والخفي في كل حقبة من حقبة التاريخ..

دين الشرك الجلي والخفي

الشكل الأول هو الشكل البدائي والواضح والصريح الذي يسمى

«دين الشرك الجلي» والذي لا يزال موجوداً بين بعض القبائل في أفريقيا. ويعتقد اتباع هذا الدين بتعدد الآلهة ويقدمون بعض الحيوانات أو الأوثان أو الملائم والرموز الخاصة.

إن محاربة هذا الدين «دين الشرك» عندما يكون جلياً وعلانياً ومكتشوفاً يعدّ أمراً سهلاً لكن محاربته ستزداد صعوبة عندما يختفي وراء ستار من «دين التوحيد» ويكون آله في يد الملأ والمترفين. وذلك هو الشكل الآخر من دين الشرك، الذي يظهر فيه دين الطاغوت باسم دين التوحيد ليقضي على دين «التوحيد» ويظهر اتباع الطاغوت باسم عباد الله ليبسطوا سلطتهم على قادة نهضة التوحيد والمجاهدين في سبيله. طالما كثر هذا السؤال على طلبة في درس «تاريخ الاسلام» في كل عام واقوله لهم مسبقاً لأنني اعلم ويعلم الجميع أيضاً أنه لو اجيب على هذا السؤال جواباً صحيحاً فإن الكثير من المشاكل سوف تحل - حتى المشاكل الاجتماعية - والسؤال يقول ان شخصين احدهما رسول الله (ص) والآخر الامام علي (ع) أرادا ان ينشرا الدين في مجتمع واحد، فلماذا خرج رسول الله (ص) منتصراً ولم يخرج الامام علي (ع) منتصراً من هذه المهمة؟ كلاهما كانا من عرب القرن السابع الميلادي والدين الذي كانا يدعوان اليه هو دين واحد والقرآن قرآن واحد والمعبود معبود واحد واللغة لغة واحدة والزمن واحد والمجتمع واحد... لكننا نرى النبي (ص) ينتصر في هذه المهمة والامام علي (ع)

يخفق فيها. لماذا؟!

البعض يجيب على هذا السؤال بإجابات مروعة فيقول مثلاً: حصل ذلك لأن علياً (ع) لم يكن مساوياً ولم يساوم الباطل ولم يقبل بالظلم والجور، بل كان حازماً في رأيه وعمله. انها اجابة محيرة فهل يقصد هؤلاء - والعياذ بالله - ان رسول الله (ص) لم يكن يتصف بهذه الصفات؟!

صحيح ان كل هذه العوامل - عدم مساومة علي وعدم قبوله للظلم والجور و... - كانت مؤثرة في (إخفاقه) إلا ان هنالك عاملاً آخر يجب ان نعتد عليه وهو العامل الاساسي الذي سبب هذا (الاخفاق).

بعبارة أخرى علينا ان نبحث عن عامل لم يكن موجوداً في زمن الرسول (ص) وكان موجوداً في زمن الامام علي (ع)، واضح ان هذا العامل هو «دين الطاغوت»، الدين العرقي والقبلي والطبقي، دين عبادة الاوثان، دين الشرك الذي كان آله في يد «الملأ والمترفين» الذين كانوا يتمثلون في قبيلة قريش آنذاك.

لقد كان هذا الدين - دين الشرك - سافراً وواضحاً وصريحاً في زمن الرسول (ص)، فقد كان أبو سفيان وأبو جهل وأبو لهب يقولون بصراحة: يجب ان نحافظ على الاصنام وعلى الكعبة لكي تبقى تجارة قريش قائمة لأن تجارتنا وعظمتنا ومقامنا وشرفنا وعلوتنا على قبائل العرب منوط بالاصنام وبالكعبة ولا يمكننا ان نقبل بشيء آخر بل يجب

علينا ان ندافع عن الاصنام والكعبة وسنن الاولين. كانوا يقولون هذه الكلمات بصراحة ولذلك كان الصراع معهم أمراً سهلاً وكان الانتصار عليهم ممكناً وهذا العامل هو السبب في انتصار رسول الله (ص).

أما علي (ع) فانه لم يشهر سيفه على قريش المشركة التي تدافع عن الاصنام بل شهره بوجه قريش المسلمة التي تدافع عن الكعبة... قريش لم ترفع المملكات السبع في وجه القرآن بل رفعت القرآن على الرماح. لاحظوا ماذا سيصنع دين الشرك؟ انه يجاهد ويفتح البلدان ويبنى مساجد عظيمة ليقم فيها الجماعة ويقرأ القرآن ويجعل جميع العلماء والقضاة تابعين ومدافعين عن شعائر هذا الدين ويتخذ دين النبي (ص) شعاراً له الا انه في حقيقة الأمر وباطنه يمارس الشرك بعينه.

ان محاربة هذا الشكل من دين الشرك الذي يتستر بلباس التقوى والتوحيد أصعب بكثير من محاربة الشكل الآخر، ولن يستطيع احد - حتى علي - الانتصار عليه.

في تاريخ المجتمعات والاصلاحات الاجتماعية نرى قادة وقفوا بوجه العدو الاجنبي الذي بسط سلطانه على بلادهم بشكل سافر فهزموه وطردوه من تلك البلاد بسهولة رغم قوة العدو وعظمتته وجبروته لكننا نرى في الوقت ذاته هؤلاء الابطال - الابطال الذين هزموا أعظم الجيوش في العالم - تراهم يخفقون في مواجهة الاعداء في

الداخل أولئك الذين تسلطوا على رقاب الناس وكانوا السبب في محتهم وشقايتهم.

يقول رادها كريشنان: «إذا ارتدى الزور والمكر لباس التقوى، ستقع أكبر فاجعة في التاريخ».

اذن عندما اتحدث عن الشرك فاني لا اتحدث عن الدين الذي كان سائداً في الماضي والذي يتجلى في عبادة بعض الحيوانات او الاشجار او الاصنام بل ان المقصود من دين الشرك في كلامي هو: الشعور الديني لدى الناس والذي كان لعبة في يد الملأ والمترفين الذين حكموا المجتمعات عبر التاريخ الطويل.

ونستنتج ان المفكرين في القرن السابع عشر والثامن عشر والمصر الحاضر الذين قالوا ان الدين كان عاملاً رئيسياً في شتات الناس وشقايتهم وتثبيت القيد والذلّة والضعف والهوان كانوا محقّين في الإدلاء بهذا الرأي لأنهم كانوا يرون الدين عائقاً عن التطوّر والرقى والحرية والمساواة بين البشر.

وقد اثبتت التطوّرات المذهلة التي حققتها البشر بعد اقضاء الدين عن ميدان الحياة صحة هذه الآراء والتصورات بشكل علمي.

غير ان هؤلاء المفكرين الأحرار الذين سعوا الى تخليص الناس وتحريرهم من هذه الخرافات والسموم المخدرة أخطأوا في تقييمهم واننا نحن المتدينين نرتكب اليوم الخطأ نفسه.

خطأ المفكرين

الخطأ الذي ارتكبه المفكرون يكمن في أنهم كانوا ينسبون إلى الذين كل شيء يروونه في التاريخ كالمعابد والجهاد والحروب المقدسة والحروب الصليبية والجهاد الاسلامي و... واننا - نحن المتدينين - كنا وما زلنا نعانى من نفس الخطأ.

ذكرت آنفاً ان للاسلام رأياً ثورياً في هذا المجال وأنه لا يقبل أيّاً من هذه الآراء بل يعتقد ان دين الحق سيتحقق في نهاية المطاف وانّ الاديان التي حكمت عبر التاريخ في شرق العالم وغربه كانت جميعاً من اديان الشرك حتى لو كانت تحكم باسم دين التوحيد، وانّ الانبياء إنما بعثوا لمحاربة هذه الأديان وانّ دينهم الحق يمنح الإنسان المفكر الحرّ شعوراً بالمسؤولية هو استمرار للمسؤولية التي كان يشعر بها الانبياء انفسهم. يقول النبي (ص): «علماء امتي أفضل من انبياء بني اسرائيل» ويقصد بذلك ان المسؤولية التي كانت تقع على عاتق الانبياء ستقع على عاتق العلماء (اي المفكرين) بعد نبوة خاتم الرسل (ص).

رسالة العلماء والمفكرين

ما هو الشيء الذي يجب على العلماء ان يستمرّوا عليه؟ أنه محاربة الدين من اجل احياء الدين وتثيئته. ان رسالة العلماء

والمفكرين هي احياء الدين - الدين الذي لم يتحقق في التاريخ - اذن يجب ان ينضج الناس ويكون لهم وجدان ديني يقطواع ويفهموا معنى التوحيد ويدركوا مدى تناقض «دين التوحيد» ودين «عبادة الطاغوت» كي يقدرُوا على تمييز دين الشرك المتشع بوشاح التوحيد ويرفعوا نقاب الرياء - بكل اشكاله وفي كل ارجاء المعمورة لكي يصلوا الى دين ليس وليداً للجهل وليس وليداً للخوف، كما يقول الماديون ويصدقون القول!

لقد شجب القرآن مراراً موقف اناس يتعرضون الى عاصفة في البحر فيبكون ويتوسلون الى الله خشية تحطم سفينتهم الا انهم ينسون كل ذلك بعد الوصول الى البرّ وبعد ان يتقدمهم الله مما كانوا فيه. ان هذا الدين هو دين ناجم عن الخوف وهو الدين نفسه الذي يتهمه الماديون في القرن التاسع عشر بأنه وليد الخوف.

لقد تهيم القرآن قبل هؤلاء الماديين على اتباع هذا الدين وعلى عبادة الجناء والعبيد والتجار وعلى كل عبادة تثبت اركان هذا الدين الذي هو وليد النظام الطبقي... من هم الذي اسسوا نظام هذا الدين والى اي طبقة ينتمون؟ الذين اسسوا نظام هذا الدين هم اولئك الذين كانوا يقولون للناس: ان كنتم تعانيون الجوع وتفقدون لقمة العيش فاصبروا حتى يجزيكم الله من موائد الجنة! هذا هو الدين الطبقي الذي ينتشر كالوباء في جسد اديان الحق - حتى في دين نبينا (ص) - . هذا هو

الدين الذي يسميه علي (ع) بدين العبيد والتجار ويسمي العبادة في الدين الآخر الذي يقف بازاء هذا الدين بأنها «عبادة الاحرار» وهي العبادة التي تنبثق عن الحرية والحاجة السامية والعشق والقضية الانسانية المقدسة والعدل والمساواة والتسسط ونفي جميع الرذائل والارجاس.

ان الدين الذي يبرر الفقر ويحرص على بقائه كان يبرر العبودية ايضاً وكان يخدر الناس ويخدعهم لصالح الملاء والمترفين. الدين القاتل (ان الله لا يهتم بكثرة ظالم وسغب مظلوم) يجعل من الشعور الديني مادة تخدير تعزل الناس عن المجتمع وتزهدهم في الامور المادية لصالح اولئك الملاء الذين يستأثرون بها دون غيرهم. ان الدين الذي انكر دائماً مسؤولية الناس وحقوقهم في تقرير مصيرهم ويبرر الوضع الظالم عبر التاريخ مستغلاً بذلك معنوية الناس وشعورهم الديني القوي، هو الذي كان يوحي للناس بان الجوع والحرمان والمرض هو علامة على رضا الله ودليل على وجود الأهلية اللازمة للتكامل والكمال وهو الذي يفتح لكل شخص حساباً خاصاً بالنسبة للاعتقاد بما وراء الطبيعة ليبدل الجمع الى افراد والحضور الى انزواء، وهو الذي يسلب من الناس حق الحياة والتمتع والتملك والتحكم ويقوم بكل هذا من اجل الطبقة الحاكمة مستخدماً بذلك الوعد والوعيد والتبرير.

ان القرآن لم يخاطب عدواً بشدة مخاطبته لأتباع هذا الدين.

ف عندما يتطرق القرآن الى بلعم بن باعوراء وهو مثال لاولئك الذين حرقوا الشعور الديني والايمان الفطري لصالح الفئة الحاكمة، نراه يخرج عن سياقه ويقول: «فقطله كمثل الكلب»، ما معنى هذه الحدة في الكلام؟ انها تعني ان هؤلاء هم الذين تبتوا وجود الملائة والمترفين وأبقوا على الظلم والاستعمار والتمييز وأنهم هم السبب في عقر ثمار جهود الانبياء، وهذه العبارات إنما تدل على شدة الاستياء من ممارسات وأعمال دين الشرك اللعينة.

أريد أن أستنتج هنا وأقول (وان كان هذا القول ينقل عليكم لكثيري سوف أشرح أبعاده بتفصيل في فرصة أخرى ان أتيح لي ذلك لأنني اعتقد ان هذا الكلام سيغير نظرتنا وحكمنا على الدين والتاريخ).

أريد أن أقول: ان الرسالة التي حملها المفكرون الأحرار في أوروبا في صراعهم مع دين القرون الوسطى والتي انقذوا من خلالها أوروبا من التخلف والرجعية هي الرسالة نفسها التي أخذها أنبياؤنا على عاتقهم عبر التاريخ. أنا لا أقول ان تصور هؤلاء كان تصوراً صحيحاً ولكن اريد القول ان رسالة هؤلاء المفكرين في الصراع مع التحجر والانحراف والدين المخالف للناس وحقوقهم هي الرسالة نفسها التي كان الانبياء يحملونها على عاتقهم وحطّموا من خلالها جميع الاصنام واستهدفوا بها جميع ممارسات دين الشرك (دين التبرير والتخدير) وستبقى هذه الرسالة على عاتق كل انصار دين

الحق في المستقبل وعلى مدى التاريخ.

عندما نقول ان دين الشرك كان مهيمناً على التاريخ وان الانبياء بدأوا حركة تاريخية تصحيحية ضد هذا الدين فاننا سنكون مسؤولين تجاه هذه الحركة ويقائنها واستمرارها لأنها حركة تقدمية تريد ان تتغير مجرى التاريخ الذي كان ولا يزال تحت هيمنة الملائة والمترفين.

ان رسالتنا هذه لا تتعلق بالماضي وليست رسالة رجعية بل هي استمرار لحركة انبياء دين الحق، الانبياء الذين نهضوا من بين الناس. الانبياء الاميون - أي المنسوبيون للامة - الانبياء الذين وقفوا بوجه وعاقب السلاطين واتباع الملائة والمترفين، اولئك الذين كانوا إما من طبقة الملوك او من طبقة الاقطاعيين، اي انهم كانوا بدون استثناء اقطاعيين من ناحية وينتمون الى العائلة المالكة من ناحية أخرى.

أما الشيء الذي لم يدركه المفكرون في أوروبا (والذي لا ندركه نحن ايضاً) هو أنهم عثموا استبائهم الصحيح عن دين الشرك (الدين الطبقي الحاكم على التاريخ) على الدين - بمعناه الأعم الأوسع - وليس صحيحاً ان نقول: ان في التاريخ ديناً واحداً، إذ كان في التاريخ أديان عديدة، وهذا الكلام هو نفس كلام «غورويش» الذي يقول: «لا يوجد مجتمع عام واحد بل هنالك عدة مجتمعات».

اذن يجب أن نفصل كل مجتمع عن غيره ثم ندقق فيه ونحكم عليه بشكل خاص.

في التاريخ كان هناك نوعان من الدين كما كان هنالك دائماً صَفَانِ وفَتْنَانِ متقابلتان على مرِّ العصور: الفئة الظالمة وهي الفئة التي تكنُّ العداء للحقيقة والعدالة والحرية والحضارة والرفي وهي الفئة التي كانت مشغولة بأشباع ولعها وغرائزها المنحرفة في التسلُّط على رقاب الناس وحرمانهم من أبسط حقوقهم، وقد كان افراد هذه الفئة من المتديِّنين ولم يكونوا من الزنادقة والكافرين.

لقد اُيدت من خلال حديثي حكم المفكرين الاوربيين على الذين غير اُتي اجد هذا الحكم ظالماً ومجحفاً من هذه الناحية. فأنه ليس من الانصاف ان نضع الدين المجوسي والدين المزدكي^(١) والدين المانوي والأديان اليونانية التي ولدت وترعرعت على يد الطبقات الاجتماعية الحاكمة وطبقات الاقطاع المترفة المرفهة، في خندق مع أديان الحق (اديان الانبياء الزعاة) ثم نعلم حكمنا على كل هذه الاديان وننظر اليها نظرة واحدة، وليس من الانصاف ان نضع دين الحق وانصاره الذين كانوا في جهاد دائم مع تلك الاديان (المنحرفة) والحكومات التابعة لها والذين قُتلوا وسجنوا وعذبوا على يد تلك الحكومات. في جبهة واحدة مع الأديان الأخرى التي حكمت التاريخ.

(١) ظهر «مزدك» في الطرف الشرقي من نهر دجلة في بلدة اسمها (ماذرايا) وذلك في زمان الملك (قباد) والد (أرتشروان) الذي بدأ حكمه سنة ٤٨٨ م، وقد كان دينه إصلاحاً لدين (ماني). (المترجم).

اننا لو أصدرنا حكماً واحداً على كل هذه الأديان نكون قد حكمنا على فئتين متناقضتين بحكم واحد وبالطبع لن يكون هذا الحكم حكماً علمياً ولا منسجماً مع العقل والواقع والأخلاق أيضاً.

أبها المفكرون أين أنتم؟ هل يمكن الحكم على شيء بالترجمة؟ كيف حكم الاوريون على دينهم؟ أنهم ناضلوا وعملوا ودرسوا وحققوا ثلاثمئة عام من الزمن وادركوا في نهاية الامر ان النصرانية هي التي سببت كل هذه المصائب لبلادهم. حسناً أنهم ترجموا ذلك ونحن أيضاً نردد نفس هذه الترجمة. الفكر لا يعني ذلك، وإذا حصلنا على مفكر بهذه الطريقة فانه سيكون مفكراً ترجمانياً وليس مفكراً حقيقياً. سوف اتطرق فيما بعد الى طريقة صنع المفكر في المجتمعات الاسلامية^(١).

كيف يمكن الحكم على الدين الذي صنع أبا ذر بنفس الحكم الذي نحكمه على الدين الآخر الذي جاء ليبقي على كُتلة الظالم وسغب المظلوم والذي كان مسبباً للفقر وحامياً له؟

أبو ذر، وجه الاسلام الطاهر الكامل المرتب على يد النبي لم يكن يملك شيئاً - لا مالاً ولا منالاً ولا ثقافة - ولم يتأثر بشيء بل كان روحاً انسانية نقيّة خالية من كل شوب، فكل ما كان عند هذا الرجل هو من صنع هذا المعمل وهذا الكتاب وهذه الرسالة. يقول أبو ذر: «عجبت لئن

(١) راجع سلسلة النتاجات (الكراس رقم ٢٠).

لا يجد قوتاً في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه!.

عندما كنت اتحدث بهذا الحديث في أوروبا ولم أذكر اسم صاحبه كان البعض يتصور أن هذا الكلام هو كلام «يرودن» لشدة تطرفه أو كان البعض يتصور أنه من كلام (داستايوفسكي).

يقول داستايوفسكي: «إذا حدثت جريمة قتل في مكان ما فإن أولئك الذين لم يكن لهم أي اشتراك في هذه الجريمة ستكون أيديهم ملطخة بدم القتل أيضاً» وهذا كلام صحيح. انظروا الآن إلى كلام أبي ذر (الذي لم يكن متديناً فحسب بل كان الدين بعينه فقد كان أبو ذر ديناً مجسماً ولم يكن أي شيء آخر فلم يتأثر بالمذاهب المختلفة ولم يعيش بعد الثورة الفرنسية، بل عاش بين قبيلة غفار).

يقول أبو ذر: «عجبت لمن لا يجد قوتاً في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه» فلم يقل كيف لا يخرج على من سب له الفقر، ولم يقل كيف لا يخرج على من استغله، ولم يقل كيف لا يخرج على الفئة المستغلة بل يقول: كيف لا يخرج على الناس كل الناس! لماذا؟ لأن كل من يعيش في هذا المجتمع وإن لم يكن من المستثمرين فإنه مسؤول عن الفقر والجوع لأنه يعيش في مجتمع يوجد فيه الفقر والجوع. كم هو مسؤول إلى درجة يكون فيها عدواً مهدوراً للدم. لأنه شريك للمستثمر الذي سبب الجوع. أي أن الناس يعتبرون مسؤولين جميعاً وبشكل مباشر عن الجوع والفقر.

والأجمل من هذا هو أن كلام أبي ذر لا يشبه ميثاق الأمم المتحدة الذي يقول: «يحق لكل شعب يقع تحت الضغط والفساد القيام لإحقاق حقوقه». فأبو ذر لا يقول: يحق لك أن تفعل هذا ولا يقول: يحق لك القيام ضد أولئك الذين سببوا لك الجوع، حتى أنه لا يقول: يحق لك أن تشهر سيفك على كل الناس بل يقول: «عجبت كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه».

حينئذ أليس من الاجحاف والجهل المطلق أن نحكم على هذا الدين الذي ينظر إلى الناس وحياة الناس هكذا نظرة بنفس الحكم الذي نحكم به على الدين المسبب والمبرر للجوع. أنه لأمر مضحك ومبكي في الوقت ذاته.



نعم

هكذا كان يا أخي

أريد أن أتحدث اليوم عن نفسي، لا لشيء إلا لأني أريد أن أتلو
عليكم خاطرة! خاطرة ترتبط بحد ذاتها بي وبشخصيتي كممثل لطيفة
ومجتمع ومدينة وتاريخ. أنا - من جهة - أنتمي إلى شريحة مثقفة بثقافة
معاصرة تعلمون طبيعة المناخ الذي تعيش فيه ومستوى ارتباطها
بالدين، وطبيعة الأهداف التي تتشدها وماهية اللغة التي تتحدث بها.
وأنا من جهة أخرى، جئتكم من بلاد نائية، صحراء قاحلة لا أثر فيها
للعمران والرفاهية والعيش الرغيد، حياة بؤس وشقاء وفقر وعوز.
وانتمي - من جهة ثالثة - إلى طبقة تتشرف بأن ليس فيها دم لشريف أو
نبيل من أولئك الذين صنعوا شرفهم بالسيف والذهب.

أشعر في قرارة فطرتي أن آبائي وامهاتي جيلاً بعد آخر
ينحدرون من الفقر والبؤس إلى أن يغيروا في عمق التاريخ - وما أسرع
غيابهم إذا لا يذكرهم أحد في التاريخ سوانا نحن أبناءهم، فالتاريخ عدو
لدود لأجدادي وأجداد أمثالي.

ومع ذلك، فقد وقع اختياري على (الحضارة) كحقل علمي
أواصل فيه دراستي وتحصيلي. وكنت على الدوام شغوفاً بآثار

الحضارة والتمدن البشري، معتبراً هذه الآثار من دواعي الفخر والاعتزاز بالنسبة للإنسانية جمعاء، وحيثما وفدت على مدينة أو بلد سرعان ما أبادر بالذهاب إلى الأماكن التي توجد فيها آثار قديمة لأهل ذلك البلد لأطلع عن كتب على حجم الانجازات والدور الحضاري الذي لعبوه في بناء الحضارة الإنسانية، وما هي الروائع التي أبدعوها في الماضي السحيق.

في اليونان، وحين ذهبت إلى معبد دلفي وشاهدت أبنيتها العظيمة، بهرتني كل تلك العظمة والجلال، وكنت إذا سافرت إلى آسيا وأوروبا وأفريقيا أعمد مباشرة إلى الآثار العظيمة لتلك الأصقاع حيث تمثل بالنسبة لي مظهر قوة تلك الشعوب ومستوى نبوغها في مجالات الفن والعمارة والصناعة، وتمكس مدى رقيها الحضاري، فكل واحدة من تلك الروائع العمرانية هي بمثابة كنز لا يقدر بثمن يمثل حصيلة كفاح النوع البشري على وجه البسيطة ويعكس مدى انتصار الإنسانية في صراعها الدؤوب مع الطبيعة على مر التاريخ.

في روما، متاحف الفنون والإعمار، والمعابد الشاهقة والقصور الفخمة، وفي الشرق الأقصى كالصين وكمبوديا وفيتنام، جبال شامخة شيدتها أياد بشرية ونحتها أنامل أناس سهروا عليها الليالي وأجهدوا أنفسهم وأعضائهم من أجل تحويلها إلى معابد لألوهة السماء ومن يمثلها على وجه الأرض من الكهف ورجال الدين. كانت هذه الأمور في

نظري دواعي فخر واعتزاز بالتراث الإنساني وكانت تمثل لي أعز المشاهد والمناظر الخلابة التي أظير زهواً ودهشة لدى التمتع فيها وإجالة النظر في معالمها...

...إلى أن قررت صيف هذا العام السفر إلى أفريقيا، يشدني شوق عارم إلى رؤية الأهرام الثلاثة في مصر. وعلى حين غرة انهار كل ذلك الشوق وتبددت كل الأواصر التي كانت تربطني بآثار الماضي وتشدني إليها بقوة. وجرفت مياه النيل معها كل التصورات التي كنت أحملها في رأسي واكتشفت أن كل ما كنت أؤمن بأنها مظاهر تمدن وتحضر إنساني ما هي إلا سراب خادع دام آلاف السنين، وقد بات الآن في نظري هشياً تذروه رياح مصر!

ما أن وطأت قدمي أرض مصر خلال أيام تموز، حتى عزمت على زيارة أثرها التاريخي العجيب، الأهرام، إحدى عجائب الدنيا السبع، وكدت أظير فرحاً إذ سنحت مثل هذه الفرصة لي. استصحبني أحد الأدلاء لأستفيد من توجيهاته وتوضيحاته حول الأهرام وطريقة بنائها وتاريخها واسرارها وسائر جمالياتها وفنونها الخفية!

أشار الدليل إلى تلك البناءات الشاهقة وبدأ يحكي قصتها: قبل زهاء خمسة آلاف عام حمل (العبيد) ثمانمئة مليون صخرة كبيرة تزن الواحدة منها طنين - كمعدّل - وجاؤوا بها من أسوان حيث السدّ العالي المعروف، إلى القاهرة ليشيّدوا بها تسعة أهرام، ستة منها صغيرة وثلاثة

كبيرة هي التي اكتسبت الشهرة العالمية الفريدة. قبل خمسة آلاف عام، حملت ثمانمئة مليون صخرة على طول مسافة تبلغ (٩٨٠) كيلومتراً من أسوان إلى القاهرة ورسفت على بعضها لتشيّد بواسطتها مبانٍ ضخمة لتصبح فيما بعد أضرحة لأجساد الفراعنة وزوجاتهم بعد تحنيطها بالمومياء المصرية!

لقد صممت الغرفة المركزية للأهرام من ستّ قطع صخرية كبيرة تنهض أربع منها كجدران للضريح والخامسة بمثابة قاعدة والسادسة ولك ان تصور حجم ووزن الصخرة التي كان يتعين عليها ان تتحمل ملايين الصخور الأخرى المتراكمة الى اعلى الهرم وتصبّر وتقاوم خمسة آلاف عام لحدّ الآن!

اخذتني الدهشة وأنا انظر الى هذا البناء الرهيب، وفجأة وقعت عيني على مجموعة صخور مركومة فوق بعضها على مسافة تبعد حوالي (٤٠٠ - ٥٠٠) متر، فاستفسرت من الدليل عنها، فلم يكثر بسؤالني وأجابني: لا شيء انها مجرد صخور! قلت له: انها مركومة على بعضها، ولا تعني شيئاً؟ اريد أن أعرف سرّ هذه الصخور. كان يتفادى الاجابة عن سؤالني وشعرت انه يتحاشى أن أطلب منه الذهاب الى ذلك المكان، فالجو كان حاراً والهواء لافح والأرض صخرية ذات تضاريس وكان من الواضح ان احداً لا تحدّثه نفسه بالذهاب الى ذلك المكان.

ولكن، ما ذنبي وأنا الذي علمتني التجارب ان اركز دائماً في

بحثي واستقصائي سواء في الكتب أو الآيات والروايات أو الآثار والأفكار، على كل ما هو مغيب ومهجور، ولطالما عثرت على المطالب القيمة في أماكن وموارد مهملة لا يتمّ التعرض لها إلا نادراً، ولا يمرّ عليها إلا مرور الكرام. ذلك ان القيمة اما ان تكتم اذا قُدر على ذلك، وإلا فبنتمّ تشويهها!

عزفت عن الأهرام وتوضيحات الدليل التي بوسع الجميع ان يعثروا عليها في الكتب والمجلات، وأصررت عليه بأن يكفي بالكشف عن ماهية تلك الصخور، فأحاب على مضض: انها أخاديد حفرت في بطن الأرض لعدة كيلومترات. قلت له: لماذا؟ قال: انها مقابر العبيد الذين شيّدوا هذه الأهرام، فعلى مدى مئة وثلاثين عاماً، وبشكل يومي كان العبيد يجزّون هذه الصخور لمسافة ألف كيلومتر وكانت أرواحهم تزهق تحتها زرافات زرافات. غير ان نظام الرقيق - الذي عطّل اختراع العجلة والعتلة على حدّ قول «شوارتز» لأن وجود العبيد بكثرة كان يغنيهم عن الحاجة الى اختراعها - هذا النظام كان يلقى بأشلاء العبيد الممزقة في هذه الأخاديد، ويبادر الى استخدام غيرهم.

ويومياً، كانت التقارير ترفع الى فرعون بموت مئات العبيد، ومن ثم يؤتى بأياض جديدة من أفريقيا السوداء لم تعود بعد على قساوة الظروف والبيئة، فترتفع معدلات الضحايا والوفيات، وكان الخط البياني يرتفع وينخفض حسب فصول السنة وبحسب انتشار الأوبئة

والطاعون. ولكن على أي حال فقد كانت الاحصائيات مروعة وتكشف عن عملية إبادة جماعية لأولئك العبيد، يضاف إلى ذلك عوامل أخرى من قبيل تقلب مزاج فرعون الذي كان مبتلى بحالات نفسية خاصة وأمراض خفية، وكذلك أمرجة أرباب العمل الذين كانوا يتسابقون في اضطهاد العبيد والتفنن في امتصاص أكبر مقدار ممكن من العمل من أولئك المساكين دون وازع من ضمير أو قانون.

ثم إن فرعون كان متديناً يؤمن بما وراء الطبيعة، وكان ذلك داعياً لرغبته في أن يدفن هؤلاء إلى جواره وعلى مقربة من هرمه لكي يواصلوا خدمته في مماتهم كما كانوا يخدمونه في حياتهم.

قلت للدليل: اتركني وشأني، فإني لا أطيق بعد هذا تحمل وجودك ولا وجود هذه الأهرام الخبيثة، سأذهب بنفسى.

ذهبت... لم تكن تمة مسافة طويلة بين أهرام القرائنة وأخاديد العبيد، غير أن الطريق كان صعب العبور، والصخور تشدخ أقدام العابرين لتخلف وراءهم خطوطاً من الدماء، لم تكن المسافة بأكثر من عدة أقدام، ولكن المسافة - دائماً - لا تتجاوز الأقدام بين الجبلاد والشهيد^(١).

(١) لعلها إشارة إلى دفن الامام الرضا (ع) إلى جوار هارون الرشيد في مشهد بايران - (مترجم)

جلست على مقربة من الأخاديد، وما لبثت قليلاً حتى شعرت وكأن رابطة قرابة وصلة رحم تربطني هؤلاء النساء، وإن بيني وبين تلك الأهرام ومن فيها كراهية ونفرة! لقد عثرت على ذاتي وأنا أطل على قبور أرحامي وأقربائي، وكأنني أعرفهم فرداً فرداً، أو كانت لي صحبة مع كل واحد منهم أو شراكة في حياة ومصير، كنت واحداً من أعضاء هذه الأسرة البائسة، وما أزال!

صحيح أنني جئت من بلاد وهم قدموا من أخرى، وأنا من عرق وهم من آخر، لكنها تصنيفات شيطانية تهدف إلى تقطيع الإنسان أرباً أرباً والمثلة به، وجعل الأقرباء اجانب والاجانب أقرباء.

غير أنني اليوم أمسيت سليلاً لهذه الطائفة من بني البشر بعيداً عن مقتضى تلك التصنيفات والتقسيمات المقيتة، هم أقربائي وأنا الآن أواسيهم، وما أن التفت مرة أخرى صوب الأهرام إذا بي أشعر بهوة ومسافة شاسعة تفصل بيني وبين تلك العظمة والجلال والبهاء، بل كأن بيننا عداوة وكراهية، وحقداً على ذلك الفن والتمدن والحضارة، لقد أدركت أن كل الآثار العظيمة على طول التاريخ والحضارات المجيدة لم تقم إلا على أسلافنا!

سور الصين العظيم، وجميع القلاع والأبراج العالية وما إلى ذلك من الآثار الشامخة، هكذا رأت النور، صخرة وصخرة ولينة ولينة من دماء أجدادي ولحمهم وعظمهم.

لقد رأيت بألم عيني أن الحضارة والتقدم لا يعنيان سوى الحقد والقمع والتكيد والاستغلال وأسر البؤساء ومضى دمايتهم... ليسفر عن ذلك بناء شاهق مؤلف من ثلاث طبقات هي عبارة عن عمارة الظلم والجور عبر آلاف السنين وقد أرسيت دعائمتها على اكتاف اخواني واخواتي، مكثت جالساً بين تلك الصخور المترامية، ورأيت هؤلاء المدفونين في تلك الحفر وهم يخاطبونني انا خريج جامعات العلوم الانسانية في اوروبا واستاذ تاريخ الحضارات في جامعات ايران يعطوني درساً من اول صفحات كتاب العلوم الانسانية، كان ذلك أول درس في التاريخ وقد علموني فيه ماذا تعني الحضارة...

اخواني علموني ان كل ما تعلمته باسم الحضارة والتقدم والاخلاق انما هو كذب محض، وان ما يدرس في الكتب والحصص ليس سوى الفرونيات والقارونيات والبلعميات، وان التاريخ الحقيقي يمتد على المسافة ما بين الاهرام وهذا المكان، وان الحضارة والمدنية والاخلاق والتاريخ وجميع العلوم الانسانية لا تدرس لا في المدارس ولا في المعابد بل هاهنا تحت هذه الصخور، هاهنا تجدونها مدفونة مع اخواني...

وتلك الاهرام الثلاثة التي لم تعد في نظري سوى الثالوث المشؤوم: الاستبداد والاستعمار والاستعمار، هي التي افتملت هذه الفاجعة لتكون دليلاً على سيرة الانسان المظلوم وشاهداً على مصيره المحتوم.

اشكركم يا اخواني المدفونين هاهنا، لقد علمتوني أن كل ما تعلمته في السابق من اخلاق وفنون وعلوم وتاريخ انما هو من صنع هذه الاهرام الثلاثة ومن يرقد فيها، من صنع فرعون والملأ والسحرة، هاهنا أنذا الآن أدفنُ تحت هذه الاهرام كل ما تعلمته منها، وأبدأ من جديد، وسوف اتجه فوراً من هنا الى (منى) ارض العشق والقتال، لأرسي الأبالسة الثلاثة أو قل الوجوه الثلاثة لإيليس، فنحن جميعاً يا اخواني ضحايا لهذه الأرباب الثلاثة التي تعلمنا منها تاريخنا واخلاقنا وديننا، والواقع ان هذه الثلاثة هي التي دفنت التاريخ والاخلاق والدين تحت هذه الصخور.

عدت الى المدينة، وعزفت عن التجوال فيها خشية ان تنطبع في مخيلتي صورة أخرى غير صورة تلك الصخور المكسدة، لم اكن أرغب في أن أفكر بغير ما تعلمته من تلك الصخور مما وجدت فيه تمام وجودي. ذهبت مباشرة الى غرفتي وجلست فيها اتصفح وأستعرض وجوه اخواني الجدد، مئة وثلاثون عاماً بمعدل ثلاثين الف من اخواني، من اسوان الى القاهرة، ذهاباً واياباً، قبل خمسة آلاف عام.

نعم! خمسة آلاف عام مضت، كان فيها اخواني تحت نير سياط الجلادين وصخورهم، ولا شك انهم لا يعلمون ماذا حصل بعد خمسة آلاف سنة، ولا شك ايضاً انهم يريدون ان يعلموا... تناولت قصاصة ورق وكتبت رسالة الى واحد من مئات الآلاف المقبورين في ذلك

الأخدود، وقَدِّمت له تقريراً موجزاً عما جرى علينا في غضون خمسة آلاف سنة، خمسة آلاف سنة لم يعد موجوداً فيها، ولكن الرقِّ والعبودية استمرّا خلالها بأنماط شتى... جلست وشرعت أكتب:

«رحمت أنت، ونحن لم نزل نبني الحضارات العريقة ونهياً لأجل فتوح واقتحارات ومآثر».

كانوا يقدمون إلى قرانا وضياعنا ويجروننا كالبهائم وراءهم، وذلك لتصنع قبورهم، وإذا ما انتهينا من بناء تلك القبور العظيمة كان المجد والعزّ لهم وحدهم ومتى ما انطلقا بضياعهم في هذه الحياة خلال هذا العمل المهلك، غدونا إحدى صخرات تلك المقبرة.

كانوا - تارة - يأخذوننا إلى الحرب، حرب على أناس لم نعرفهم ولم نكرهم من قبل، حتى على رفاقنا ومواطنينا وأقربائنا.

كانوا يدفعوننا إلى الحرب عنوة في حين أن آباءنا وأمهاتنا الذين خط الدهر خطوطه السوداء على سيماهم - ينتظروننا بفارغ الصبر، ولكن انتظارهم هذا ظلّ بلا جدوى... ولا جواب...!!

هذه الحروب - على حد قول أحد العلماء - كانت عبارة عن: اشتباك بين فريقين لا يعرف أحدهما الآخر^(١).

كانوا يأخذوننا إما لنقتل، أن لم يكن النصر حليفنا فالكوارث

(١) تفرسوا في هذا الحديث جيداً لأنه يوضح مسار التاريخ كله - المؤلف.

والنكبات والخراب والمدن المتهدمة والمزارع الجرداء تصبح من نصيب آبائنا وأمهاتنا، وأن انتصرنا كان الفخر والعزّ والمباهاة يسجل للغير، ونحن العرائس المتحركة خلف الكواليس... لم نحظ بشيء من هذا النصر.

أخي! نهضة وتحول عظيمان ظهرا بعدك، الفراعنة والجبابرة وطغاء التاريخ بذلوا طريقة تفكيرهم، لهذا فرحنا!! حيث إن القدماء كانوا يعتقدون بأن أرواحهم خالدة وبعد موتهم ستظلّ تحوم حول مقابرهم، ومتى ما بقي الجسم سالماً ستظلّ رابطة الروح معه كما هي قائمة، ولأجل هذا الاعتقاد أرغمونني وأرغموك على رصف هذا الصخور الهائلة المميّنة.

ولكن مع مرور الزمن أمسوا أكثر تنوراً وأصبحوا لا يفكرون بالموت من بعد، لهذا تركوا تلك العقائد البالية وكانت لنا - هذه - بشرى سارة، بشرى النجاة من بناء تلك القبور وجلب ثمانمائة مليون صخرة من مسافات آلاف الكيلومترات ورصفها على بعض...!!

ولكن يا أخي!! لم تعمّر هذه البشرى طويلاً، إذ تسربوا كالنمل إلى قرانا وأجبرونا على العمل بعدك، ومرة أخرى تكررت نفس المأساة! ومرة أخرى حملوا على هاماتنا وأثلاثنا الصخور ولكن لا لقبورهم هذه المرة، بل لقصورهم وأسوارهم العظيمة، تلك القصور التي امتزج بناؤها بدمنا ولحمنا.

أخي: مرة أخرى كنا نحوم كبقير الساعور في دوامة اليأس، متلهفين إلى نافذة يطل منها النور، فكانت نهضة «أنبياء عظام» زردشت العظيم، ماني^(١) الكبير، بوذا الكبير، كنفيوس الحكيم، لاو تسوا المتعمق... كانوا آمالاً تبرعم في الطريق، لابد أن الآلهة بعثت هذه الشخصيات العظيمة لإتقاذنا نحن المحرومين والمستضعفين من الظلم والعبودية والهوان وليحلوا الإيمان والعبادة محل الظلم والرق.

ولكن يا أخي: هؤلاء المبعوثون من طرف الآلهة كانوا يقدمون دون أن يأبهوا بنا ولم يذكروا اسماً لنا، كانوا يذهبون إلى قصور الحكام مباشرة، فكنفسيوس الحكيم مثلاً، الذي كان يتحدث عن المجتمع والانسان، وكنا نصدق ما يقول، لقد ذهب إلى وزارة «نو» وأصبح نديماً لأمرأ الصين.

(١) ماني: اسم رشم ظهر في زمان (أردشير) وبعضهم يقول بل في زمان السلك (هرام)، ظهر بعد عيسى (ع)، وقد قتله (هرام بن هرمز). اسم كتابه (أرزنك) وعقائده مزيج من عقائد الزردشتيين واليهود والمسيحيين. يقال إن أمه من نسل الملوك الأشكاكيين، وأبائه من رجالات (همدان)، هاجر إلى (بابل) وولد (ماني) في تلك البلاد عام ٢١٦ م، ادعى النبوة بعد أن اطلع على الأديان الموجودة وسعى نفسه (فار قليط) الذي أخبر عنه المسيح. ومن أقوال ماني: «يبشر الأنبياء بأوامر الآلهة أحياناً من الهند بواسطة (زردشت) والآل أرسلني الله لشرد دين الحق في بابل» و «أرسلني الله نبياً من بابل حتى تصل دعوتي العالم أجمع». (المترجم).

وبوذا - حيث كان من كبار أمرأ «بنارس» قد قاطع الجميع وغار في نفسه ليذهب إلى «نيروانا» - التي لا أعلم أين هي - ولهذا تراه مكتكاً ليخرج بأفكاره العظيمة إلى الجيع...!!

وزردشت الذي كانت آذريجان محل بعثته - وبدون أن يكلمنا نحن المحرومين والمعذبين - ذهب مباشرة إلى بلخ فمكت في بلاط كشتاسب.

و«ماني» الذي تحدث البنا عن النور وتهجم على الظلمة، ظل يهيم في آذاننا - نحن المسجونين والمحقرين في الأرض - عن الظلم والظلمة، وهكذا لم نزل نتحايل على انفسنا ونقول: ... أجل هذا هو المنجي الذي ظهر لإتقاذنا، ولكنه افصح عن لب كلامه ضمن كتاب اهداه إلى الملك شابور الساساني، هذا وقد اتى خطاباً أثناء حفل تتويجه وكان يفترخ بمرافقته إلى سرنديب والهند وبلغ ومن ثم تراه يبرر هزيمتنا بهذه الأنشودة:

«كل من يهزم ويدحر فهو من ذات الظلمة».

«وكل من يفوق ويتنصر فهو من ذات النور».

ولهذا ترانا - نحن المهزومين والمستضعفين - نملأ طول وعرض التاريخ دوماً.

أخي: ذهبت «أنت» ضحية لهذه الأبنية الشامخة و«أنا» منذ

رحت «أنت» صرت قريباً لهذه القصور الشاهقة. وعلى حين غرة وجدت نفسي تحت قيود ونير من هم خلفاء فرعون وقارون - الذين يبيعونني ويشترونني متى ما طاب لهم ذلك... اجل يا اخي... لقد ظهرت بعدك طبقة رسمية تدعي «الكهنة»، ففي فلسطين وايران ومصر والصين، بل وفي كل مكان يوجد انسان محروم مثلي... كان لابد لي أن أجز على ظهري الصخور لأبني بها تلك القصور الفخمة والمعابد والهيكل الرفيعة.

وبعد هذا وغير هذا، فإن «خلفاء الاله» وهذا «النبي» كانوا يطوفون رقابتنا بقلادات أخرى... فباسم الزكاة يسرقون وينهبون وتحت شعار الجهاد يبعثونا الى ميادين الحروب، حتى انهم كانوا يرغبوننا على ان تقدم اطفالنا قرايين على مذبح المعابد والهيكل وتحت ارجل الاصنام.

أخي، أندري ما أعانيه... لا: فإن الهياكل كلها عامرة بدم اولادنا الابرياء... وهكذا أصبحنا - مرة أخرى - لعبة بيد الالهة اضافة الى وارثي فرعون وقارون.

اجل... اغتصبت الكهنة المجوس أغلب أراضينا وهكذا فعلت الكنائس حيث كنا عبيدأ بل اداة كادحة لهم.

دفعونا لتشييد المعابد والقصور الفخمة في الروم والهيكل العظيمة في الصين... وكان الهلاك من نصيبنا... أما النصر والعز فللكهنة

والقسمة وتجار الدين ووارثي فرعون وقارون...!!

و«أنا» الذي عشت بعدك آلاف السنين وشاهدت حثف رفاقي واخواني ولهذا انتابني شعور بأن الالهة أيضاً تكره وتبغض العبيد. ورويداً رويداً أحسست بأن الدين هو في حد ذاته قيد قيّدونا به والكهنة والقسمة ورجال الدين هم أنفسهم وسائل أخرى لاستعبادنا واستحكام هذه القصور وتلك القبور.

ومرّت الأيام... والحكماء والعلماء العظام - الذين كان تفكيرهم أفضل منا - كارسطو القائل بأن: بعض الناس ولدوا لأجل أن يكونوا عبيدأ وبعضهم جاءوا الى هذه الحياة ليكونوا سادة ونبلأ اشرافاً... لهذا أيقنت بأننا ما جئنا إلا لنكون رقيقاً وليس لنا حظ غير هذا، وحظنا ما عساه ان يكون سوى الظلم والجور والضرب والتحقير والعبودية، ولا شيء غير هذا...!!

ولكن يا أخي: فجأة وعلى حين غرة علمت ان رجلاً هبط من جبل وركن الى معبد مزمجرأ: «أني رسول الله»...

ومرة أخرى، كادت ارتعاشة مهيبه تحبس انفاسي.. هل ان خدعة أخرى تكمن وراء هذه الصيحة... ولكن فتح فاه فقال - وانا لا أصدق -:

اني بعثت من قبل الله القائل: «وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ

استضعفوا في الأرض وجعلهم أثمة وجعلهم الوارثين^(١).

يا للعجب...!! كيف أصبح الاله يكلم العبيد والمستضعفين؟
ويبشرهم بالنجاة ويعددهم بالزعامة والقيادة، ويجعلهم وارثي
الأرض؟.. كدت لا اصدق، قلت: هو الآخر كياقي المبشرين
والمصلحين و«الانبياء» في ايران والصين والهند... لا بد انه احد الامراء
النبلاء المبعوثين لتنفيذ القدرة والسيطرة وتكديس القوى ضد الشعب.
قالوا: لا، انه يتيم والكل قد شاهدوه مراراً وهو يرعى الاغنام وراء هذا
الجبل، قلت: ماذا اسمع...!! كيف هي مشيئة الاله هذه المرة... يصطفي
رسوله من بين الرعاة؟! قالوا: اجل، هو آخر حلقة من سلسلة الانبياء
الرعاة، حيث ان اجداده كلهم كذلك، ذابت ابعادي في ظل رجفة ملؤها
شوق صارخ وصيحة خرساء، إذ ان نبياً يبعث «منا» ولأول مرة...!!
آمنت به وايقنت برسالته لأنه جمع شمل اخواني ورفاقي الفقراء
حوله.

بلال، العبد الحبشي، سلمان، أسير من اسراء ايران، أبو ذر،
البائس المجهول وسالم، غلام زوجته خديجة... الخ، كل هؤلاء
اليؤساء البائسين، كل الاسراء والعبيد وكل المظلومين والمشردين
اصبحوا قادة قومهم.

(١) القصص: ٤.

صدقته وآمنت به لأن قصره! كان ذا حجرتين أو ثلاثة صنعت
من طين حيث اقام هو بنفسه البناء.. ويلاطه لم يتعد حفة من الاخشاب
المتراصة على بعض من سف النخيل!! اجل، هذا كل ما كان يملكه
ويؤثر به على معاش الناس من جراء بناء قصره هذا!! هكذا كان
وهكذا رحل.

جئت... هارباً من الكهنة المجوس... من الظلمة الذين كانوا
يسوقوننا كاليهاثم الى حروبهم التافهة ونزعاتهم الطائشة...

فررت واعتصمت به... قدمت الى مدينته وعشت معه ومن
حولي رفاقي الرقيق والاسراء والمحرومون وجميع مستضعفي العالم...
قضيت أيامي معه حتى راح في غفوته السرمدية تاركاً وراءه شمسناء
خلف ستار داكئ.

أخي: وفجأة رأيت المعابد العظيمة تشق عنان السماء مرة أخرى
وتعتلي باسم ذلك النبي الأمي في حين ان السيوف التي كتبت عليها
آيات «الجهاد» كانت تهدد وجودنا في كل آن...

ومرة أخرى امتلأت بيوت المال والخزائن بأموال نهبها
وسلبوها وانتزعوها عنوة منا... ومرة أخرى جاء خلفاء هذا الرسول
ومسخوا القرآن واخذوا شبابنا عبيداً لتصورهم، باعوا امهاتنا في
الأسواق البعيدة وقتلوا رجائنا باسم «الجهاد» في سبيل الله، واستولوا
على كل ما تملك باسم «الزكاة».

ياش قاتل دَبّ في قلبي... أجل يشت... لا أدري ما أفعل؟ لقد ظهرت سلطة جديدة تخفي خلف رداء التوحيد نفس الاصنام التي حطمها ذلك «الرجل» وتوقد في مساجد «الله» نار الكذب والخديعة... ومرة أخرى تكررت نفس المأساة، تكررت نفس الوجوه القرعونية القارونية التي تعرفها انت يا أخي جيداً... اخذوا باسم الله وخلافة رسوله يضربون الناس بسوط الدين... ونحن - مرة أخرى - مشينا في أزقة المبودية لتبني مسجد دمشق العظيم!.. ومرة أخرى دَوّت هنا وهناك صيحات تدعو إلى الحرية... قصورنا درة في نوعها وطرازها... مساجد محيرة للمقول... كالتصحر الأخضر في دمشق ودار خلافة الف ليلة وليلة في بغداد... كل هذا كان يثمن دمنا وحياتنا ولكن هذه المرة... باسم «الله».

ومرة أخرى صرت لا اصدق ان هناك خلاصاً ونجاة...!! لان المبودية والموت الأسود كانا مقدوران لنا.

أجل... من كان ذلك الرجل؟! ترى هل كان يخفي خلف تلك الرسالة اطروحة لخداعنا؟! كان مؤسس هذه الايدولوجية التي عدّونا في دهاليزها وزناناتها كالخرق البالية... أجل كان هو الداعي لحرق مزارعنا وشن الغارات على ممتلكاتنا وقتلنا كالذباب... لا.. كلا... ف «أنا» و«هو» أمسينا ضحايا...!!

لا أدري... لم يكن هناك أمامي سبيل آخر أسلكه... لمن

التجيء؟ إلى الكهنة المجوس!! كيف ذلك؟ إلى المعابد والهيكل التي كانت ولا زالت قائمة على اساس الظلم والتزوير؟! إلى القادة.. إلى كل الذين ينادون بالحرية والوطنية؟ لا... لأن هؤلاء كلهم فقدوا مكانتهم ومناصبهم وسطوتهم الغابرة بعد صيحة هذا «الرجل» لهذا تراهم يتكالبون لأجل احياء ذلك التراث البالي المتهرىء من جديد.. وبعد هذا وغير هذا... إلى أين أقدر أن أذهب...؟! إلى المساجد؟ ولكن ما الفرق بين هذه المساجد وتلك المعابد..؟!

وبغته - يا أخي - رأيت السيوف التي حفرت عليها آيات «الجهاد»... والمساجد التي كانت طافحة باسم «الله»... والمآذن التي كان يدوي فيها اذان «التوحيد»... والوجوه المعروفة التي جلست على سرير الحكم باسم الخلافة وتحت شعار - الامامة والافتداء بنهج ذلك «الرسول»... رأيت - يا أخي - كل هذا مرة واحدة وهي تلتقي في بؤرة واحدة وذلك لأجل جرّنا في أزقة الاستعباد وساحات الحروب والهلاك والدمار والتكفير و...و...

لأبد أن تعلم يا أخي أن واحداً آخر «منا» أصبح ضحية لهذه الجرداء القاتلة في مسجد يذكر فيه اسم «الله»، أجل إنه الامام علي، قريب وحبيب ذلك «الرسول» فقد اغتيل في محراب «الله»... ولاقي الظلم والعدوان هو وآل بيته قبلي وقبلك وقبل جميع المعذيين والمحرومين على امتداد التاريخ، حاربوه وغاروا على بيته باسم

الجهاد والزكاة...

وذلك «الكتاب» الذي لا ريب فيه، قبل ان يصبح أداة لاستعبادي ونهبي وقتلي، وضع فوق الرماح ليكون الفشل ولنكون النكسة من نصيب ذلك الرجل.

يا للهول... هذا كل ما كان... اذ اني وجدت بعد انتقاء خمسة آلاف سنة كيسة قاتلة، رجلاً يحكي لنا عن «الله» ولكنه لم يعرض حديثه للأمراء والنبلاء بل «لنا»... لم يكن كيوداً ليذهب الى «نيروانا» ولا كالرهبان ليخدع الناس ولا كالعرفاء الذين يبيعون - الوصول الى «الله».

أجل فقد وجدت رجلاً جهاد وعدالة... فان اخاه - عقيل - أصبح الضحية الاولى لهذه العدالة الجافة الصارمة... رجل، كانت زوجته بنتاً لذلك «المبلغ» الكبير... الخ. كانت تستغل وتعمل ككل العائلات المحرومات، تتحمل الاذى وتتجرع القذى فتذوق الجوع والفضنى بلحمها ودمها...

اجل يا اخي... وجدت رجلاً كان اولاده وارثين لتلك الراية الحمراء التي ظلت تقور دماً حاراً نحو السماء على امتداد التاريخ، ولهذا تراني بعد مضي خمسة آلاف عام ومن هول تلك المعابد والانيّة التي اعرفها «انا» وتعرفها «أنت» فذهبتنا ضحاياها... ومن خوف ذلك الاستبداد وتلك الفرعة التي اعرفها «انا» وتعرفها «أنت»... اجل بعد

مضي كل هذه الاعوام تراني اعتمد بهذا «البيت» اللبني الوضيع... المهجور، الصامت.. كأنه بيت اموات... ظل «هو» وحده.. ذهبوا كل رفاق ذلك «المبلغ» الكبير... ارتحلت زوجته.. لا يدري علام يلوى.. كان يبكي لأجل ما ابتليتنا به «انا» و«أنت»... وهو يجري بين نخيل بني التجار... ويناجي بيبكائه «الله».

أخي: كان «هو» والذين معه كلهم «منا».. من المحرومين.. تراه ولأول مرة يستخدم الفصاحة والبلاغة في بيانه وخطاباته الغراء لأجل اتقاذنا وتوعيتنا، لا لأجل تبرير وتوجيه محروميتنا وتدعيم الانظمة الحاكمة.. كان حديثه أفضل من «دموستنس» ولكن لا، لإحقاق حقوقه الشخصية فقط... كان كلامه أبلغ من «يوسويه»^(١) الخطيب ولكن لا للتملّق في بلاط لوى بل لأجل المظلومين ليصرخوا بوجه الظلمة... سيفه لم يشهر للذود عن نفسه وعائلته وقومه... ولا لحماية المقتدرين الممتصين... بل كان اسحن وأصدق من «سياراتاكوس» لأجل خلاصنا من الذل والعبودية... كان يفكر أحسن من «سقراط» ولكن لا لأجل اثبات الفضائل والاخلاقيات التي عليها طابع النبلاء المتعجرفين، بل

(١) جاك بينيني يوسويه، لاهوتي وواعظ وكاتب فرنسي، ولد في ديجون عام ١٦٣٧، ومات في باريس عام ١٧٠٤، اشتهر في باريس بمواعظه وتأييده التي ألقاها بين ١٦٦٧ و ١٦٨٧، تحول إلى فيلسوف ومؤرخ حرصاً منه على فائدة تلاميذه فكتب «المقال في التاريخ الكلي» الذي حاول فيه التركيب بين النظام الإلهي والتفاعلية الانسانية. انظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، ص ٢٠٣.

لإحقاق القيم الإنسانية الأصيلة لأنه لم يكن من ورثة الفراعنة والكهنة، فهو لا يملك محراباً ولا مسجداً، أنه شهيد المحراب.. «هو» أسوة حسنة للعدالة والتفكير البناء ولكن لا، لزوايا المكتبات والمدارس، وهو لا يعدّ من العلماء الاسترطاطيين الذين يصلحون لأن يوضعوا في المعارض للبيع، في حين أنهم من شدة التفكير العميق!! لا يفهمون مصائر الناس ولا يعانون شيئاً من عذابهم ولوعاتهم وجوعهم القاتل.

انه في ذات الوقت، حينما تجول روحه العظيمة في أرجاء السماوات، يسمع، اثنين الاطفال اليتامي فتنابه رعشة محرقة تستولى على كيانه كله.

انه يصرخ لأجل جور جرى على امرأة يهودية في حين انه نسي شدة ألم ضربة الخنجر القاتلة في المسجد، قائلاً: «فوت ورب الكعبة»!

أجل يا أخي، انه ملك البلاغة والكلام العذب الساحر ولكن حديثه هذا لا يشابه أبداً بالشاهنامة، تلك الملحمة الحماسية التي تحوى على ستين ألف بيت، حيث انك خلال هذه الملحمة كلها لا تجد حديثاً «عنا» سوى مرة واحدة فقط.. أجل مرة واحدة تحدث الشاعر «فردوسي» عن واحد «منا» يدعي «كاوة»، الحداد الحر، المناضل من أجل الحرية والنهضة والغلاطى والنجاة لرفاقه الكادحين، ولكن بطلنا الجسور هذا ضاع وظلّ مجهولاً قبل ان تتم نهضته ويفتح طريقه الى الشاهنامة.. أجل لن تعرض شخصيته بشكل واضح بين، علام؟ لأن

شخصية «فريدون» النبيلة ونسبه المرقى طغيا على بطولية هذا الرجل الكادح... ولذلك فأتينا لا نرى اسمه في (الشاهنامة) إلا خلال أبيات معدودة فقط.

والآن يا أخي!! نعيش في عصر ومجتمع يحتاج «اليه»... فهو لا يقارن بياقي الحكماء ولا يشابه العباقرة والعلماء، إذ أنهم كانوا عباقرة فهم ليسوا رجال أعمال... وان كانوا رجال أعمال بل ومن الكادحين فهم ليسوا مفكرين وعباقرة، وان كانوا في ذات الوقت رجال أعمال كادحين وعباقرة مفكرين أيضاً فهم ليسوا رجال مبادين الحروب والجهاد وان اجتمعت - بفرض الحال - الثلاثة عندهم في آن واحد، فهم ليسوا اتيقاء وازكياء وان توفرت لديهم كل هذه الخصال فهم لن يعرفوا الله حق معرفته بل تراهم يتخطون في دوامة مظلمة عشواء.

انه رجل كل هذه الأبعاد الإنسانية كواحد من الكادحين مثلي ومثلك تماماً، يكذب ويتعب، وينفس الأثام التي خطت تلك السطور الملوكوتية في «نهج البلاغة» يدفع بمحارته في الارض ليحفر بئراً أو ليحدث قناة ويفتح الماء على الاراضي البائرة اليابسة. كأحد العمال والزرايع تماماً ولكن لا لهذا وذاك، بل لنفسه، يصرخ في قعر القناة: جروني الى الاعلى، وحينما يجرونه الى فوق وهو مغشى بالوحل، ينهر الماء في تلك الارض العطشاء المحرقة نحو المدينة، فتنطح بنوهاشم، ولكنه قبل أن يتنفس الصعداء ويستريح قال: «طوبى للدين

سيرثوني، فإنهم لم يحصلوا على قطرة من هذا الماء...»

أخي والآن... وفي هذه الحالة حاجتي إليه ملحة ولا بدّ لزعميم مثله يعنيني في هذا الطريق الشاق المليء بالمصائب والويلات، لأن الحضارات والثقافات والاديان والمذاهب تغيرت وأدبرت وانقلبت على عقبيها وارغموا الانسان ليكون حيواناً مستهلكاً اقتصادياً أو حيواناً لا يعرف سوى ذاته والاستغاة فقط، صارفاً عمره في ازمة المعابد، وقد يكون انساناً فكوراً عاقلاً ذا بصيرة ولكن دونما عاطفة أو احساس، كأنهم لا يحملون بين جنبيهم قلب انسان، اناس قشريون، غلظاء، لا يدركون معنى للمحبة، وقد يكون رجل حب واحساس وعاطفة ولكن دونما تدبر وتعقل، عقلم خالٍ من التفكير السليم. دونما علم - جهال، دونما منطق واستدلال... غير انه رجل كل هذه الخصال... ربّ الكدح والتعب والعمل... ربّ البلاغة والقصاحة... ربّ الجهاد والحرب... ربّ الاخلاص والوفاء... ربّ العذاب والحرمان... ربّ السكون والسكوت... ربّ الصرخة المهيبة... ربّ العدل والقسط.

والآن يا أخي... نعيش في مجتمع تسيطر الأعداء على نصف أو بالأحرى على كل العالم، فيدفعون جيلنا هذا الى استعباد جديد لم يألفوه من قبل.

والآن إذا نظرت الى ظواهر الأمور، وبشكل قشري وسريع خاطف ترانا اناساً احراراً، لسنا عبيداً لأحد أو فئة أو تكتل اجتماعي

أو سياسي أو غير ذلك، لأن العبودية وقضية الرقيق أمست من القضايا الرجعية البالية!!... ولكننا - يا أخي - ابتلينا بعبودية جديدة افطع واتمس من عبوديتك «انت»... نهبوا تفكيرنا... قيدوا قلوبنا وسلبوا ارادتنا... انهم يجعلوننا تنمو في فضاء شاحن باستعباد متوج بشعارات الحرية وبقدرات العلم. علم الاجتماع، الثقافة، الفن، حرية الجنس، حرية تقديس الشخصيات، حرية الاستهلاك وحرية الاستيلاء والنصب... اجل بقدرات هذه العلوم استأصلوا الغاية والايمان والاحساس بالمسؤولية والاعتقاد بمذهب «معين» من ادمغتنا ونفوسنا.

والآن يا أخي... فنحن امام هذه الانظمة الحاكمة نشبه الى حد بعيد، الاوعية الملونة الجميلة الجوفاء، نستوعب كلما يصب في ادمغتنا ونفوسنا.

والآن... باسم الفرق والمذاهب... باسم السلالة والنسب... باسم الأوطان والحدود... وحتى باسمه «هو» وكذلك باسم منازعيه ومخاصمي... باسم هذه التعابير المصطنعة قطعونا ومزّقونا قطعاً صغيرة ليسهل عليهم بلعنا... يا للفرقة... يا للشقاق والنفاق... يا للمتشتت والتبعثر...!!

جعلوا مناصريه وشيعته ينقضون على أنفسهم ويمزقون رفاقهم واخوانهم... أعداء الأعداء مع بعض... لماذا؟ لأنه لا يسبل يديه حين

الصلاة... يعتلي دم الانتقام في وجوههم... لأنّ ذلك يسجد على تربة وهذا لا يسجد عليها.

انبتوا في نفوسنا الاشتباك والتزاع والمشاجرة بشكل فطيع.. نفوا رواد الفكر الاحرار وأبعدوهم الى اقطار بعيدة عنا في حين انهم بدأوا يمثلون دور الراعي المحافظ والذائد عن رعيته وقطيعه..!!

أخي، يا أخي... لقد كنت تعرف سيدك ومولاك وكذلك ألم الخيزران والسوط جيداً دونما تخطيط أو إيهام... كان يسيراً عليك ان تشعر به وتحسه... اذ كنت عارفاً بعبوديتك... وتعرف أيضاً سبب هذه العبودية... وتدرى متى أصبحت عبداً ومن هم الذين استعبدوك؟ ولكننا الآن ابتلينا بنفس مأساتك هذه ولكن بدون أن نعرف الذين جعلونا عبيداً لهم في قرنتنا الحاضر هذا، ولا ندرى من قبل أي فئة أو جهة نسلب ونهبط وكيف وقعنا في شرك الذل والاستسلام والخضوع وانحراف الافكار والعقائد والعبودية المشؤومة السوداء الرهيبة.

أخي، يا أخي: الآن، يجرّونا كالبهايم الى حظيرة الرق والاستعباد ليستنفذوا دماءنا ويستغلونا أكثر بكثير من عصرك وجيلك... ليس امامنا طريق سوى تشغيل هذه القوى ورؤوس الأموال والمصانع والثروات الفنية الهائلة والانتاج، يجب أن ندير عجالات هذه القوى بدمنا ولحمنا واضطهادنا واستضعافنا ولا يصيبنا سوى ما يسدّ رمقنا او لا يسدّ...

الحرمان والتمييز العنصري والظلم والجور في عصرنا اشد وأكثر من عصرك ولكن بتقارب جديد وطريقة اجدد.

أخي، يا أخي... هذا عليّ تراء يقدم حياته كلّها لأجل هذه الكلمات الثلاث...

خمسة وعشرون عاماً كلها تضحية وفداء ونضال من اجل غرس الايمان والعقيدة في قلوب اناس غلاظ متوحشين مستغرقين، خمسة وعشرون عاماً آخر قضاها في صمت مرير وصبر قاتل كان في عينه شجى وفي حلقه قذى من اجل وحدة المسلمين اتجاه الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الايرانية، كذلك خمسة وعشرون عاماً آخر من بقية حياته كانت مفعمة بالجد والجود ومملوءة بالعذاب واللوعة من اجل استقرار العدالة الاجتماعية ومحوكل آثار العقد والضغائن بسيفه الجبار ذي الفقار لتكون احراراً نملك مصائرنا ولا نعيد إلا الهأ واحداً مقتدراً عزيزاً، ولكن يا للأسف لم يقدر... لن يقدر... مع هذا فقد علمنا بمنهجه ومدرسته وطريقه وكذلك الزعامة والسيادة دوماً... منهج العدالة وزعامة الناس وعلى هذا فهو تارك وراءه ثلاثة شعارات وعلى اثرها فقد قدم نفسه وعائلته وكل ما يملكه على منصة الاستشهاد والفداء وذلك لأجل هذه الكلمات الثلاث الخالدة في مجرى التاريخ: المبدأ... الوحدة... العدالة الاجتماعية...

توينبي . الحضارة - الدين

حوار مع توينبي^(١)

قال لي: دعني اطرح هذه المسألة الشخصية قبل ان نبدأ حوارنا. أنت تعرف أنني رجل مؤمن وانظر الى الدين من منظور كونه حقيقة وضرورة ماثلة إلا أنني أعاني الشك والتردد في أفكاري وميولي السياسية، فكثيراً ما أشعر بالحيرة في كيفية الجمع بين نزعتي الدينية التي لا تتلاءم بطبيعة الحال إلا مع نظام اجتماعي - سياسي مثالي، وبين افكاري السياسية المتأثرة والمعجبة جداً بالنظام العلماني. فأني بصفتي مسيحياً مؤمناً أدعو الى نظام حكم ديني وبصفتي نصيراً للديمقراطية أؤيد نظام الحكم العلماني وهذه الازدواجية جعلتني أعاني دائماً من صراع واحترام عنيف في أفكارى.

قلت: انه صراع منطقي وضروري وليس بوسمك إلا ان تختار

(١) أرنولد توينبي (Arnold Toynbee)، مؤرخ وفيلسوف انكليزي (١٨٨٩ - ١٩٧٥)، أكد في مؤلفه الرئيسي «دراسة في التاريخ» إرادته في بناء فلسفة التاريخ انطلاقاً من دراسة إحدى وعشرين حضارة. من مؤلفاته الأخرى: «الحرب والحضارة»، «الحضارة في محنة». انظر: معجم الفلاسفة، جوج طرايشي، ص ٢٤٦.

واحداً وتدع الآخر.

قال: اظن أنك تمناني نفس هذا الصراع بشكل أكثر حدة لأنك مزجت الاسلام مع أفكارك السياسية، اللهم إلا أن تقول: أنك لا تؤمن على الإطلاق بنظام الحكم العلماني وهذا ما يستبعد تصوّره لأن منهجيتك في التفكير وحتى وجودك في هذا الحقل يدلان على أنك تؤمن ايماناً راسخاً بالحرية والديمقراطية. إذن انت تطالب بنظام حكم اسلامي من جهة ونظام حكم علماني من جهة أخرى، فكيف يكون ذلك؟

في هذه الأثناء تحدّث شخص ثالث كان جالساً معنا وقال بمزاح: «إن حلّ هذا التناقض هو أمر سهل بالنسبة إليه (وأشار إليّ). اظن أنه سيثبت لك الآن أنّ نظام الخلافة الاسلامي هو نوع من الحكم العلماني!!

قلت: كلا، على الإطلاق، فالخلافة ليست نظاماً علمانياً بل حتى لا يمكن اعتبارها حكماً إسلامياً. أنها حكومة عنصرية جاهلية مصبوغة بصبغة اسلامية. فلم تقم الخلافة على اساس اسلامي وانما اتخذت الاسلام وسيلة للدفاع عن نفسها وجعلت منه حارساً أمنياً يدافع عنها. قال توينبي: لا، هذا ليس صحيحاً، أنك تريد ان تنسب أفكارك وعقائدك الخاصة الى الاسلام، بتعبير آخر أنك لا تطرح الاسلام كما هو بل تطرح اسلاماً خيالياً يعجب المثقفين في وقتنا الراهن. انا اعتقد أنّ

عليك أن تتقيّد بحقيقة الاسلام. فالاسلام هو الشيء الذي كان موجوداً لا الشيء الذي تتمنى ان يكون موجوداً. ثمّة فرق بين الاسلام الذي تتمناه انت كمثقف متأثر بالثقافة الاشتراكية والعقائد الديمقراطية وبين الاسلام الذي جاء به النبي محمد (ص) في القرن السابع الميلادي وآمن به العرب وعملوا بأحكامه منذ ذلك الحين.

قلت: ان سمحت لي بإكمال حديثي لعرفت أنّ انتقادك الوارد هذا ليس وارداً عليّ.

قال: ماذا تعني؟ فان كان الانتقاد وارداً كيف لا يكون وارداً عليك؟

قلت: انتقادك وارد لأن هذا الكلام هو كلام صحيح فالتنا يجب ان لا ندسّ عواطفنا وأمزجتنا الخاصة في الحقائق الا أنّ هذا الانتقاد ليس وارداً عليّ لأنك لو استمعت الى كلامي لرأيت انني لم افعل ذلك.

قال: عذراً، انا استمع اليك.

قلت: انني عندما اطرح فكرة الحكومة الاسلامية اقصد بذلك حكومة النبي محمد (ص) وبعض خلفائه الاوائل الذي كانوا يعملون بسنته، في حين انت تنظر الى خلفاء الامبراطورية العثمانية أو الى حكومة الخلفاء في اسبانيا وبنغداد وسوريا أي الى الحكومات التي ينفّر منها المسلمون المثقفون أكثر من غيرهم.

في البداية، علينا أن نعرف ما هي الحكومة الدينية؟ الحكومة

الدينية هي الحكومة التي يحلّ فيها رجال الدين محلّ رجال السياسة، بتعبير آخر الحكومة الدينية هي حكومة رجال الدين على الشعب.

الاستبداد هو من المعالم الطبيعية التي تتسم بها هكذا حكومة. لأنّ رجل الدين سيشغل منصب خلافة الله وتنفيذ أوامره في الأرض. وفي هذه الحالة سوف لا يكون للناس حقّ لإبداء الرأي والانتقاد والاعتراض. فالزعيم الديني يعطي لنفسه حق الزعامة والقيادة مركزاً على قيمته واعتباره الديني لا على قيمة آراء الناس وانتخايمهم. إذن هو حاكم غير مسؤول وهذا النوع من الاستبداد هو أسوأ أنواع الاستبداد والدكتاتورية الفردية. لأنّ الحاكم الديني يظنّ أنه خليفة الله وظلّه الممدود في الأرض فهو يسيطر على رقاب الناس وأموالهم ونواويسهم ولا يتردّد في أي نوع من الظلم والاسراف والاعتداء بل يعتقد أنّ هذه الاعمال مقرونة برضا الله تعالى عزّ وجلّ، والأسوأ من ذلك أنه يعتقد أنّ معارضي حكومته واتباع الأديان الأخرى لا يستحقون حتى حق الحياة لأنهم هم الضالّون الذين غضب الله عليهم وهم أعداء دين الله والحق وأنّ الاعتداء على هؤلاء وسلب حقوقهم هو أمر عادل بل هو العدل الإلهي بعينه!

لقد حكم القساوسة في القرون الوسطى بلاد أوروبا باسم الحكومة الدينية وقد رسم فكتور هيجو تصويراً دقيقاً يجسّد فيه مساوئ هذا النوع من الحكم.

إنّا الاسلام، فلا يمكن إثارة هذا الأمر فيه لأنّ المجتمع الاسلامي لا يوجد فيه رجل دين بالمعنى الذي نراه في الأديان الأخرى. فلا توجد فئة خاصة باسم (روحانية) «الكلمة التي تعادل كلمة Clerge» باللغة الإنجليزية. الدين في الاسلام ليس مهنة والارتباط بين الفرد وربه في هذا الدين هو ارتباط مباشر وأنّ تحصيل علوم الدين في الاسلام لا يختص بفئة خاصة بل فرض هذا الدين طلب العلم على كل مسلم ومسلمة ولم يسمح لأحد بالتقليد في أصول دينه كما فرض التبليغ الديني والدعوة إلى المبادئ الأخلاقية على جميع الشعوب المسلمة ولم يخصّ جماعة بهذه الدعوة الكريمة. فلا يوجد في الاسلام رجل دين رسمي أو مبلغ رسمي أو مفسّر رسمي أو مندوب ديني رسمي، فالجميع جنود مبلّغون يربطون الخلق بالخالق، وهم في الوقت ذاته مفكّرون مستقلون مسؤولون عن أعمالهم وعقائدهم وهذا هو البعد الفردي الليبرالي في الاسلام الذي تدّعي أمريكا دجلاً أنه ينتمي إليها وهو أساس الديمقراطية الإنسانية التي تضمن حرية الفرد وتحافظ على حقوقه حيال المجتمع وعلى قدرته ومركزيته^(١).

(١) صحيح أنّ هناك جماعة خاصة باسم «علماء الدين» تبلورت بسبب تعقيد المسائل واتساع رقعة المجتمع الاسلامي إلا أنّ هذه الجماعة هي جماعة من رجال الدين العاديين وليست جماعة رسمية. فهي جماعة قابلة للانتقاد والاعتراض وليست جماعة مقدّسة غير مسؤولة، ومعصومة مصانة من الخطأ.

**وداعاً...
يا مدينة الشهادة**

قبران في طوس: خير الناس كلهم وقبر شَرِّهم، هذا من العبيد
ما ينفع الرجس من قرب الزكّي وما على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرئ رهن بما كسبت له يدها فخذ ما شئت أو فذر
لا اضحك الله سنّ الدهر إن ضحكك وآل احمد مظلومون قد قُهرُوا
مشردون نُفُوا عن عقر دارهم كائنهم قد جنوا ما ليس يُغفَر

* * *

ما أبلغ مزار سلطان أرض طوس وما أفصح قُبته الذهبية التي
تعلو سطح الحرم، الحرم الذي يرقد فيه الخليفة والامام، الجلاء
والشهيد.

ماذا أقول؟

يرقد هارون في وسطه والامام في احدى زواياه لأنهم دفنوا
الامام الى جانب الخليفة تكريماً له.

كان مدفن الامام في البداية داراً لحميد بن قحطبة وكان صحن
حرم الامام يستأنأ تابعاً لتلك الدار وهو البستان الذي سَمَّ الامام بعنبيه.
يا للعجب كم يستطيع المعمار أن يكون معلماً ومنهماً!

العالم يتحدث اليوم عن «فلسفة العمران» ولكن في أي مكان من الأرض يستطيع المعمار أن يكون فيلسوفاً عميقاً كهذا!

يتحدث العالم اليوم عن «فلسفة التاريخ» ولكن في أي زمن استطاعت «فلسفة التاريخ» أن تتجسّم في شكل بناء كهذا البناء! أربعة عشر قرناً مضت وهم يتحدثون عن «إسلام التاريخ» و«تاريخ الإسلام» ويدرسون الحقيقة والإيمان والتحريف والتفاسد والحق والغصب والخلافة والامامة والظاهر والباطن والكفر والإيمان والإسلام الحاكم والإسلام المحكوم....

ولكن أي محقق ومبلّغ وكاتب ومؤرخ ومتكلم ومفسر وفقيه ومحدث... استطاع أن يجسّد الحقيقة كما جسّدها هذا البناء؟

من منهم استطاع خلال هذه القرون الأربعة عشر أن يجمع كل هذه الرموز والأسرار والمفاهيم والمواطف والاجتهادات والبحوث والجدل الديني والصراع السياسي والمذاهب الفكرية والتضاد الطبقي والملاقات الاجتماعية والصراعات التاريخية... كل شيء في بناء واحد وقبة واحدة؟ بكلمات منقوشة على الحجر وعبارات مرسومة على الفضة والذهب والرخام وعبارات مكتوبة على «الايواب والجدر» وتقوش في «البيوت التابعة» وفي قوائم الانظمة والمنظومات...

تأملوا في اسم «البيوت التابعة» للحرم:

دار الحفاظ، دار السيادة، دار الضيافة، دار العزة، دار السعادة و... وفي النظام الإداري:

الخفر الأول، الخفر الثاني، الخفر الثالث، الخفر الرابع، الخفر الخامس، الخادم الرسمي، الخادم الفخري، البواب، الإدارة، دائرة المراسيم، دائرة الاعلام، دائرة البساتين، دائرة الاملاك، دائرة الاراضي والموقوفات والاجارات والتذوير....

وأما قائمة أسماء أولئك الذين خلّدوا اسمائهم في الكتب أو في النقوش الحجرية بواسطة ايجاد بناء أو تجديد بناء أو تذهيب ايوان أو منارة تكريماً لهذا المزار المقدس: السلطان محمود الغزنوي^(١)، السلطان سنجر السلجوقي، شاه رخ الملك المغولي، جوهر شاد الملكة المغولية، بايسنقر الامير المغولي، السلطان ابو سعيد، السلطان باير شاه، الشاه عباس الصفوي، نادر شاه و...

وهناك قائمة طويلة بأسماء الأعيان والاشراف والأمراء الايرانيين والأتراك والتتر والمغول مذكورة في الكتب وفي عقود الوقف.

وكل هذا يدلّ على أنّ «صانعي حوادث التاريخ» قد لجأوا إلى

(١) ظهر الغزنويون في أواخر الدولة العباسية وتركزوا في خراسان واتخذوا من مدينة غزني عاصمة لهم، ومن أشهر سلاطينهم السلطان محمود الغزنوي.

هذا المكان المقدس في مساويء حوادث الدهر. فقد كان ملوك الزمان وجبايرة الارض يتسارعون لتقيل هذا التراب والخضوع امام هذه العظمة وكان هذا الضريع مبعداً لرجال ثلوث السلطة في التاريخ. الامراء والملوك، الاقطاعيون، ورجال الدين الذين طالما استعبدوا الناس سياسياً واقتصادياً وعقائدياً، يتوجهون وكآتهم رعايا الى مزار السلطان علي بن موسى الرضا معترين بذلك عن انتساب سلطانهم وقدرتهم ونفوذهم السياسي والمادي والمعنوي الى هذا المزار السماوي المقدس الذي منحهم هذه المكانة واعطاهم هذا المنصب في الأرض، فإن شمس حياة الناس (هؤلاء) ليسوا إلا اقماراً صغيرة تدور حول «شمس الشمس»، سلطان أرض طوس.

ولذا نرى السلطان عباس الكبير يخلع عليه ويملئها على رقبته ويعشي على قدميه الحافيتين من أصفهان - عاصمة الدنيا - الى مشهد «الرضا» ايماناً و ارادة و اخلاصاً رغم جلاله وجبروته وقدرته وسلطانته ورغم وجود صالة تختص بالموسيقى والشراب في قصره «عالي قابو» ورغم انه كان يقتل الذكور في عائلته ليعي نفسه خطر ظهور من يناقسه على السلطان.

وفي حرم الامام نرى هذا السلطان يقص رؤوس الشعوخ كالخدم فينشد العلامة الشيخ الهائي الذي كان أكثر رجال الدين قدسية في زمانه هذا البيت البديع في حضوره:

«فجئى توبه احتياط زن اى خادم ترسم بئرى شهر جبريل امين»
ومعناه:

«ايها الخادم خذ حذرك في استخدام المقص، فأني أخشى ان تقص به جناح جبريل الامين»
ونرى الملك الشهيد ناصر الدين ينشد هذا البيت وهو يقبل ثرى قدم الامام:

«در كفشكن حريم هرد موسى موسائى كلیم با عصا مى بینم»
«في منزع احذية حرم ابن موسى ارى موسى الكليم متكئاً على العصا».

لقد كان هذا المزار ملجأ للشاردين وملأذاً للهاربين ومأوى آمناً لمن كان يفرّ بنفسه من سيوف الطغاة والجلادين.

وهكذا أصبحت «مشهد» مدينة كبيرة. فبعد هجوم جنكيزخان وبعد أن أراق ابنه «تولي» دماء اهالي مدينة طوس، لجأ من استطاع الهروب بنفسه الى ضريح الامام وسرعان ما تحول هذا المزار الصغير الواقع في ضاحية مدينة طوس الى مدينة كبيرة وامست طوس مدينة خربة مهجورة تقع في ضاحية هذه المدينة.

بعدها حاول خلفاء جنكيز ارجاع الناس الى مدينتهم ولكن لم يرجع احد، فقد آثروا ان يبقوا الى جوار امامهم غرباء كإمامهم الغريب

ويتركوا ديارهم الى الأبد.

وهكذا أسست هذه المدينة!

وما زالت هذه المدينة على هذه «السنّة» التي كانت عليها من قبل.

إن هنا لك شيئاً خفياً في هذه المدينة يخاطب القلوب ويحكي عن عظمة هذه «الروح» فهي تضمّ الى صدرها الغزلان الجريئة الهاربة من مطاردة الصيادين في صحراء اللهب والهول هذه. الصحراء التي لا يعيش فيها سوى الذئاب والثعالب والفئران ولا تسكن فيها إلا النعاج لأنها ذلولة سمحة القياد.

أما الغزلان فهي طليقة تجوب كل مكان ولا ملجأ لها في هذه الصحراء القاحلة لأنها لا تمتلك أنياب الذئاب ولا رقاباً تطيق القيود.

فهي هاربة دائماً من فزع هذه الصحراء الجرداء.

الصحراء هي التاريخ بعينه قد تجسّد في قالب جغرافي، فهي عظمة مرموزة صامتة قانطة مسلّمة قاحلة، لا ماء فيها ولا زرع ولا جبل شاهق مغرور ولا نهر جاري مسرور ولا أغنية نبع عاشق ولا بستان ولا سحابة ولا زهرة ولا منظر ولا مرتع ولا طريق ولا سفر ولا منزل ولا مقصد ولا حركة نهر ولا قاع بحر ولا صرخة رعد ولا لمعة برق.

إنها مكان هاديء محروق حزين قانط. فهي مسكنٌ للنيلان والجن والارواح الخبيثة والذئاب وملجأ للوسواس الخناس والفاسق

الواقب والثقات الساحر والحاسد الخائن! - أنها موطن الخيال والاسطورة. فهي سراب، لا ماء فيها ولا شجر، يسودها السكون، لا بسبب الهدوء والسكينة بل من شدّة الخوف.

لهيب هوائها القاسي يغلي المنخ في الدماغ وحرارة رمالها تفرع الثبات عن الإنبات. والناس فيها وجوه مشوية ونواصي مجعّدة وعظام منهترّة يكسوها الجلد.

التمنّع في الصحراء امر صعب ولهذا يضع الناس الايدي على العيون لكي لا ترى الصحراء أنهم يرون ولا تعرف انهم يعرفون.

وبين الحين والآخر تهبّ في الصحراء عاصفة فتقلب كل شيء وتحجب السماء عن الارض الا انها تهدأ بعد قليل ليبدو وجه الصحراء من جديد وكأنّه لم يطرأ عليه اي تغيير. فالصحراء تعصف وتهدأ ولكن دونما اي تغيير فهي كالبحر، غير أنها ليست بحراً من الماء والمطر واللؤلؤ والسمك والمرجان بل من التراب والرمال والغبّار والافاعي والوزع واليرابيع...

أغلب الكائنات التي تعيش فيها هي من الزواحف، غير أنك تجد بين الحين والآخر طيوراً خائفة لا موطن لها ولا ملاذ تذكرك بقصّة ببغاء طاغور ولكن ليس في الهند بل في ارمينيا.

أما نبات الصحراء فهو «الخنشار والصبار»، هذه الاشجار التي تتسم بالشجاعة والصبر تتحدّى الصحراء فتخرج شطأها من صدر

رمالها الملتهبة مستغنية عن الماء والمدح والثناء ثم تستوي على سوقها وتظهر بمظهر الآلهة في هذه الصحراء: شجاعة وغرور ووحدة وغربة، كأنها سفيرة العالم الآخر في قلب الصحراء!

هذه الأشجار الشجاعة التي تثبت في قلب جهنم ليس لها ورق ولا ثمر لأن شوق الأزهار والأثمار قد وند في سيقانها وأغصانها. وأما مصير هذه الأشجار: فأنها تجتث من جذورها بجريمة التجاسر على الصحراء فتوضع في التور وتحرق ليخبر بها الرغيف، هذا هو مصيرها المحتوم.

واليوم...

جاء غزال خائف إلى مزار حامي الغزلان.

لجأ إلى حمى أمته وإيمانه.

لأنه سمع أن عيناً تبعته من الغيب في هذا المكان.

وأن بستاناً غطى التراب بغطائه الزمردني.

إلا أن تلك العين لم ينبع منها إلا «المكر».

والبستان لم يزهر فيه إلا الورد الأسود والعنب المسموم والزمان القاتل.

فأصبحت قصة هذا الغزال^(١) تذكر بمصير قومه.

الذين خلصوا رقا بهم قبل مئات السنين.

(١) المقصود بالغزال هنا هو الشاعر الفردوسي صاحب الشاهنامه.

من «قيود عدل انوشيروان»^(١).

ولجأوا إلى المدينة بحثاً عن «عدل بلا قيود»

إلا أن المطاف آل بهم إلى بنداد.

ليجدوا أنفسهم قيّداً بـ «عدل القيود».

رحلوا ليبحثوا عن النبي.

غير أنهم وجدوا خليفته الغاصب.

واليوم...

لجأ إلى الامام رجل وحيد.

من أحفاد هؤلاء القوم الخائبيين.

إلا أنه وجد في حرمه الطاهر نائبه الغاصب.

ماذا أقول؟

وجد جلاداً يرقد في حرمه.

يا لها من دائرة مخيفة!

أن أقرب الناس إليه.

هو أشد الناس عداءً له.

وان الأقرب مداراً إلى محور الصدق وشمس الغيب

هو الأكثر كذباً وأشدّ مكرًا.

* * *

(١) وهو الملك الفارسي عادل. (المترجم).

وهذا المهاجر الوحيد، الغزال الطليق
هو من أحفاد أولئك المهاجرين الخائبيين، تلك الغزلان الجريحة
الخائفة.

التي رحلت إلى مهبط الوحي
مليئة نداء النبوة،

هرياً من التالوث المشؤوم: «كسرى، دهقان، موبد»^(١).
بحثاً عن التالوث الإلهي المقدس: «الحرية، المساواة، الوعي».
إلا أنهم أصبحوا ضحية لتالوث آخر أكثر شؤماً: تالوث «ال خليفة
- الشيخ - الفقيه»، لقد ترك هذا المهاجر الوحيد، قطع نعاج الصحراء
الجاثمة هرياً من تالوث «الذنب - التعلب - الفار».

مليئاً نداء الوصي.

بجسم يكاد أن يكون نيلجي اللون من شدة ضرب السياط.

وشفاة تلتهب من شدة العطش.

واقدام مجذرة من طول الطريق.

وقلب مفعم بالشوق والعشق.

لجأ إلى حرم الامام:

ولكن...

وامصيناه!

(١) دهقان: الملاك والقطاعي الكبير، موبد: رجل الدين المجوسي.

أنه حرم «هارون»!

والامام يرقد إلى جانبه!

إلى جانب هارون!

أيعني هذا أن الامامة هي في هامش الخلافة؟

أيعني هذا أن الايمان هو في خدمة الجور؟

أيعني هذا أن لباس التقوى هو غطاء يغطي هياكل الزور؟

أيعني هذا تستر تالوث «السيف - الذهب - السبحة» بسترار

الدين؟

أيعني هذا أننا نطوف حول هارون باسم الامام؟

أيعني..

هناك الخلافة والرسول وهنا النيابة والامام؟

أيعني اختفاء رجس هارون في ضريح العصمة الطاهر؟

أيعني تطهير السلطة من جديد؟

وتقديس الذهب.

وتبرير الزور والتزوير؟

أيعني دعوة الخلق إلى زيارة الخليفة باسم الدين؟

لست أدري...

غير أنني أعلم أن هذه الشجيرة الصغيرة.

سليلة شجيرات الخنشار والشمع تلك.

ما ان أوردت وأزهرت حتى حل الشتاء .
 فاجتثها من الجذور .
 تجار الخشب وصناع الفحم وموقدو التيران وخبازو الرغيف لقد
 امسكوا بتلك الغزاة الهاربة .
 في حمى حاميها .
 وسلموها الى الصياد .
 ففي هذا العصر هجمت الخلافة مرة أخرى .
 وأغار سعد بن أبي وقاص آخر في قادسية أخرى .
 وزحف وحوش العرب من جهة الغرب هذه المرة .
 فنهبوا «مدائن» نا .
 ودفنوا لغتنا وإيماننا وثقافتنا وتاريخنا .
 وجاؤوا بالعبودية والجهل بستار المدينة والعلم .
 وهدموا الأسوار والبروج واستطوا الجدر والسقوف .
 واطفأوا نيران المعابد .
 و...

«زئبوك وزايران وان تازيان نژادی پدید آمد اندر میان
 نه ترك و نه ايران، نه تازی بود سخنها به كردار بازي بود
 نويان كسان از هي سود خویش بجويند ودين آرند به پيش»^(١)

(١) من الايرانيين والترك والعرب ظهر عرق وجيل جديد

وفي غضون ذلك:
 نهض ابن الفلاح القروي الخراساني
 برأسمال عمره
 وقدرة عشقه
 بدون مسند وملاذ
 أهمل الحياة ليجمع ويدون ويذكر الناس بكل فخر وعشق
 وإيمان وفن وحضارة وبطولة... قد اجتثها خلفاء العرب وسلاطين
 الترك وباعة الوطن من آل برمك ونوبخت وطاهر وسامان وصقار و...
 والعلماء من قبيل المقفع وافشين و...
 فكذب خمساً وتلاثين سنة بدون توقع اجرة لينشد «مذكرة»
 الايمان المنسي لهذا القوم. غير ان اولئك الذين لم يطبقوا استماع اسم
 الظماء ولم يرغبوا في احياء الموتى وابصار العمي تأمروا عليه
 فشرّوه من دياره وكفّروه وحرضوا الرعاع على ايمانه بدعوى انه
 رجل رافضي معتزلي. فاستدلوا بهذا البيت على اعتزاله:
 «بسه پسیندگان آفریننده را نیبني مرنگان دو بیننده راه»^(١)
 واستدلوا بهذه الأبيات على انه رافضي العقيدة:

ليس إيرانيّاً ولا تركياً ولا عربياً، بنافي كلامه عمله
 اضروا الناس طلباً لثناهم وجعلوا الدين ستاراً
 هذه الأبيات هي للفردوسي شاعر الحماسة الايراني.
 (١) لن ترى الخالق بالعين فلا تؤذي عينك !

«خردمند گیتی چو دریا نهاد برانگیزخته موج از او تند باد
چو هفتاد کشتی در او ساخته همه بادیانها بر افراخته
میانه یکی خوب کشتی عروس بر آراسته همچو چشم خروس
پسچیر بدو اندرون یا علی همه اهل بیت نبی و وصی
اگر خلد خواهد به دیگر سرائی به نزد نبی و وصی گنجی جای
مگر زین بد آید گناه من است چنین دان و این راه راه من است
بر این زادم و هم بر این بگذرم بقین دل که خاک پی حیدرم»
ومعناها:

«عندما خلق خالق الكون البحر، وتلاطمت فيه الأمواج عند
هبوب الرياح

صنع فيه سبعين سفينة، ورفع عليها الأشرعة
وكانت بين هذه السفن سفينة جميلة، كالعروس ومزينة كعين
الديك

اجلس الله فيها النبي وعلي، وجميع اهل بيت النبي والوصي
فإن اردت الخلد في الدار الآخرة، خذ مكاناً بقرب النبي
والوصي

فإن أصابك سوء من هذا فانا المسؤول، كن مؤمناً بهذا فإني
مؤمن به
اني ولدت على هذا وسوف اموت عليه، كن واثقاً من انني تراب

قدم حيدر»

...حزن كثيراً وعندما عرف نية السلطان محمود، خرج من مدينة
غزنين في سواد الليل و... ظلّ هارباً... لمدة ستة اشهر... قيل له: انت
رجل شيعي وكلّ من يتمسك بآل النبي سيكون مصيره...
حملوا اجرة عمله الذي استغرق خمس وثلاثين سنة على بعير
وأرسلوه الى طوس... وبينما كان البعير يدخل من بوابة (رودبار) في
مدينة طوس كان الناس يخرجون جنازته من بوابة «رزان»

وكان هنالك واعظ في محلة طبران طوس وهو فقيه المدينة
الكبير اسمه الشيخ ابو القاسم الكركاني اصرّ بتعصّب وقال: سوف لن
اسمح بدفن هذه الجنازة في مقبرة المسلمين لانه رجل رافضي. توّسل
الناس اليه ولكن دون جدوى فاضطّروا ان يدفنوه في بستان قريب من
هذه البوابة كان من أملاكه...»

يقال أنّه خلف بنتاً في غاية الكرم، أرادوا ان يسلّموا اليها صلة
السلطان ولكنها أبّت عن ذلك وقالت: «انا لست بحاجة اليها» فكتب
صاحب البريد الى السلطان فأمر بإخراج ذلك الفقيه من مدينة طوس،
فاعتبروا يا اولي الأبصار

اولا البابا وماركس...

كان لكل من البابا وماركس دور رئيسي في تدوين فلسفة التاريخ على النحو الذي نراه اليوم او في بلورة نهضة جديدة تطالب بالعدالة الاجتماعية وترفض النظام الطبقي الاستغلالي كما كان لهما الاثر الكبير في بلورة نزعة اجتماعية وخلق رأي عام يدعو الى تسييد النظام الاشتراكي ونيل النظام الرأسمالي في عصرنا الراهن. ففي اوربا كان البابا الذي يعد رمزاً للسلطة الدينية ووارثاً لتاريخ الاديان يعمل على تحويل الدين الى نظام فكري رجعي تابع للطبقات الحاكمة، وكان الدور الطبيعي الذي يلعبه الدين هو تبرير الوضع الموجود وامتصاص نقمة الشعوب المحرومة وتسكين غضبها بالوعد والوعيد وهكذا كان الوضع بالنسبة للطبقات الانسانية الأخرى كالفلسفة والمنطق والفن والأدب والعلوم.

وبعد عصر النهضة حيث تحرر العقل والعلم من قيود الكنائس وتخلّصت شعوب اوربا من سطوة حكم البابا ونالت استقلالها الحقيقي، أخذت هذه الشعوب تتطور بسرعة مذهلة، وسرعان ما حلت الأمم القوية محل المقاطعات الصغيرة واحتلت الاكتشافات والاختراعات مكان تقليد القدماء والعيش على فضلات موائدهم. بيد ان المنطق

العلمي والروح التحررية الجديدة والرؤية العلمية الحديثة اتخذت وبشكل عفوي موقفاً سلبياً تجاه القوى الدينية الرسمية التي تصدّت بدورها لهذا التيار الجارف. وقد ساهمت البرجوازية التي تتنافى مع روح الخير والجمال المعنوي والقيم الاخلاقية المتعالية في تقوية هذا التيار المناهض للدين، خصوصاً أن معظم ممثلي هذه النهضة الفكرية كانوا من افراد الطبقات الاجتماعية المتوسطة اي الطبقة البرجوازية الحديثة التي كانت تناويء الدين تارة من ناحية الروح الطبقية وأخرى من ناحية كونها تحاول اكساح النظام الاقطاعي والقضاء عليه، ذلك أن الدين الرسمي كان يشكل البنية القويّة الفكرية والثقافيّة لهذا النظام البائد.

وفي ظل هذه التحولات ظهرت الماكينة لتتحول الرأسمالية التجارية الى رأسمالية صناعية وتؤدي إلى التمرکز في الرأسمال من جهة والتمرکز في اليد العاملة من جهة أخرى، الأمر الذي أدّى بدوره الى اتساع الهوة الطبقيّة أكثر من ذي قبل لأنّ قدرات انتاج الماكينة التي كانت في خدمة اصحاب رؤوس الاموال أدّت الى ازدياد حجم رؤوس الاموال في ايديهم واستثمار اليد العاملة بشكل بشع للغاية الأمر الذي أدّى بدوره الى اتساع الهوة الطبقيّة وتنامي معدل الاستثمار الطبقي عدة أضعاف وكان هذا هو السبب في بروز الصراع الطبقي الحديث وتعبئة الرأي الحرّ ضد الاستثمار والماكينة والرأسمال من اجل انتقاد الطبقة

العاملة التي كانت تفقد يوماً بعد يوم استقلالها وحرّيتها بل وطابعها الانساني وتظهر بمظهر الآلة المرتبطة بالماكينة العملاقة.

فلم تكن هذه الطبقة تملك أي شيء حتى أنّها لم تكن تتمتع بالحياة التي كان يتمتع بها الفلاح القديم بل كانت تحصل لقاء عملها على اجرة لا تتجاوز القوة التي أخذتها منها الماكينة لكي تستطيع ان تستمر في عملها يوماً آخر كالفقير الذي يبيع دمه ازاء بطاقة تموينية تسدّ جوعه وتصنع له من الدّم ما يقدر أن يبيعه في اليوم التالي ليبقى يعيش هذه الدوامه الرتيبة التي تسمّى «الحياة».

وفي هذه الأثناء ظهر ماركس الفيلسوف الهيجلي الملحد الذي عاش بعد مرحلة النهضة في اوربا.

ماركس كان ينتمي الى طبقة برجوازية متوسطة وكان في الوقت ذاته ضحيّة التمييز العنصري والتعسف الديني بسبب انتمائه الى اسرة يهودية. وقد تزامن ظهور ماركس مع الحركات العمالية واسعة النطاق التي اجتاحت دول اوربا وخصوصاً ألمانيا وفرنسا وانجلترا ممهدة بذلك الظروف اللازمة لظهور المذاهب الاشتراكية والشيوعية والحركات الثّقافية، وبالذات في فرنسا. عملت هذه المذاهب على تحذير الانسان من مغبة الانصهار في النظام البرجوازي السائد ووقايته من المسخ والانتقايء لسلطة الماكينة ومناهضة ظاهرة التفرّيط «العمل» الذي يمدّ الجوهر الحقيقي للانسان ومقاومة التوجه الاستغلالي الذي

كانت الماكينة تزيد في وحشيته يوماً بعد يوم والقضاء على الرأسمالية الفردية الداعية بشكل جنوني إلى الحرص والطمع والجشع...

وأيضاً القضاء على التضاد الطبقي الذي صنف المجتمع الانساني إلى فئات متخاصمة والعمل على انتفاذ الطبقات الاجتماعية المحرومة خصوصاً عمال المصانع من أغلال الماكينة وهيمنة رؤوس الاموال وإيجاد مجتمع خالٍ من التضاد الطبقي والاستغلال والجشع واعطاء الأصول «للعمل» لا «لرؤوس الأموال».

لقد دون ماركس في ظل هذه الظروف التاريخية والاجتماعية الحساسة، الاسس الأيديولوجية لنهضة انسانية ثورية مناوئة للنظام الطبقي الاستعماري معلناً أن انتصار هذه النهضة هو أمر حتمي وجبري زعماً منه بأن ذلك هو نتيجة حتمية للقوانين الاجتماعية والعوامل المادية الخارجة عن ارادة الناس ومشيتهم. ومن ثم عمد إلى قراءة التاريخ لكي يوجي بأن هذه القوانين هي قوانين علمية بحتة وأن هذه الحركة هي المرحلة النهائية لسلسلة التحولات الجبرية التاريخية، مستنداً إلى قانون الجبر المادي للتاريخ، وقام بتدوين فلسفة التاريخ مرتكزاً على هذا الاساس.

وامعاناً في اعطاء الأصول والأهمية للنزاع الطبقي الذي كان نطاقه يتسع بسبب ظهور الماكينة والرأسمالية الصناعية، أرجع ماركس أسباب جميع الحروب البشرية التي حدثت عبر التاريخ إلى العوامل

الاقتصادية ونظر إلى الحضارات والحركات الاجتماعية والمدارس الفكرية الانسانية وقصة الانسان من الزاوية التي كان ينظر منها هو في عصر الماكينة والرأسمالية واصالة الانتاج والاقتصاد (أي القرن التاسع عشر في أوروبا الغربية)، أما بالنسبة إلى الذين فقد كان ماركس يرى في وجه المسيح نفس الملامح التي كان يراها في وجه البابا وهنا يكمن خطأ! فالبابا كان أشبه بقيصر الروم منه إلى عيسى المسيح، الصياد الفلسطيني الحافي الذي كان تاج رأسه أكليلاً من الشوك وهو القائل: «لن يدخل خزّان الأموال الجنة حتى يلج حبل المرسة في سمّ الخياط».

ليس المقصود من البابا هو البابا في القرن التاسع عشر ولا حتى جهاز الكنيسة الكاثوليكية بل المقصود الطبقة الرسمية لرجال الدين الذين كانوا يتحكمون بعقائد الناس على طول التاريخ وفي مختلف المجتمعات ويستخدمونها في تحكيم اسس نظامهم الطالم الذي يجعل من الاكثريّة ضحية له «نبل» الاقليّة الحاكمة. وهذا هو السبب الذي دفع بماركس إلى اعتناق المادية كأساس فكري للنظام الاشتراكي متوسلاً بذلك لنفي الدين الذي يشكل الاساس الفكري لهيمنة (النبل) وحكومة الاستبداد والتجحر، وليجتث بذلك جذور العبادة التي تركز عليها جميع الأديان.

إذا أراد الانسان ان يفكر بحرية ويشاهد الاشياء بوضوح

وبصيرة، فعليه ان يمارس بنفسه الكشف والتحليل والتحقيق ويجتهد حتى يتوصل الى حقائق الأمور ويحذر التقليد ويجتنب اجترار قناعات الآخرين، وعليه ان لا يتأثر بشخصية الأبطال والعظماء والقادة لأن الحق هو المعيار في تقييم الرجال وليس العكس، يقول أمير المؤمنين (ع): «اعرف الحق تعرف أهله».

اذن علينا نحن المثقفين المنتسبين الى مجتمع آخر وتاريخ آخر ووضع آخر ودين آخر وزمن آخر ان نحذر السقوط الى مستوى المؤمن العائمي المقلد الذي يعمل برسالة مرجعه الديني العملية ويستغني في كل الامور. بيد ان هذا السقوط يبدو اليوم في عيون الكثير من اتباع «الموضة الفكرية» نوعاً من التجدد والتقدم.

ان قيمة أفكار ماركس - ان كانت هنالك قيمة في افكاره - تكمن في سعيه الى معرفة الحركة التي كان يتنسب اليها والهدف المقدس الذي كان يؤمن به وتحليلهما تحليلاً علمياً واعطائهما وجهة فكرية خاصة. فقد عمد ماركس الى كتابة التاريخ لصالح هذه الحركة وقام بتجهيزها بالفلسفة والمنطق وعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم الانسان ومنح الطبقة العاملة التي كان يشعر بالمسؤولية تجاهها وعياً طبقياً وسلاحاً ايديولوجياً يمكنها من البقاء والاستمرار في طريقها.

اذن، فالتقليد العلمي والفكري لا يقتضي منا ان نكرر اعمال ماركس بطريقة عمياء ونأخذ بما أملاه علينا بعبون معصية، لأن هذا

النوع من التقليد يشبه كثيراً تقليد المريض الامي للطبيب المتخصص ويختلف تماماً عن تقليد الانسان السليم الذي يسعى ان يكون طبيباً كالطبيب الذي يعالجه وشئان ما بين هذين النوعين من التقليد. لقد كان ماركس يرى الدين في وجه البابا ومحيّاه ويعتقد ان دور الدين في المجتمع ليس بأكثر من الدور الذي لعبته الكنائس في القرون الوسطى. والسّر في ذلك انه لم يكن يرى سوى الأديان الحاكمة على التاريخ فقد كان يرى دين موسى في حكم «الاحكامات والاحبار» ورسالة عيسى في نظام الكنائس واسلام محمد في سياسة الخلفاء والتشيع العلوي من خلال الحكم الصفوي.

فان أردنا أن نقلد ماركس في رؤيته هذه لن نكون اشتراكيين ولا مفكرين أصحاب حق بل سنكون مقلدين أذلاء اغلقوا عيونهم وآذانهم وخسروا انفسهم وفقدوا الثقة بها وشلب منهم حق الرأي والاستقلال والقدرة على التمييز بين الخطأ والصواب، بل سنكون قد انكسرنا المسلّمات ومسختنا الحقائق ورفضنا الإيمان بكل شيء حتى بأعيننا وآذاننا وإدراكنا وفهمنا.

ان معرفتنا بالتاريخ والدين هي اوسع واعمق بكثير مما كان يعرفه المفكر المادي في القرن التاسع عشر. فقد كان المفكر المادي آنذاك يرى الدين من منطلق كونه وليداً للجهل والخوف والنظام القبلي او النظام المادي والفكري الحاكم على المجتمع بينما نستطيع نحن اليوم

ان تفصل بين نظرتنا الى الدين كقابلية انسانية وبعد انساني خاص وبين نظرتنا اليه بصورته المعينة المستحقة في ظل النظام الاقتصادي - الاجتماعي ومرحلته التاريخية الخاصة.

ان الدين هو شعور ينبثق عن وعي الانسان ومعرفة بنفسه ويدعو الانسان الى الكمال عن طريق تقديس القيم السامية من قبيل: الجمال والخير والبصيرة واللفظ والابداع والارادة والحرية والمعرفة والكمال والهداية والعزة والعدالة والحق ومناهضة الظلم والجهل والضعف والذلّ.... وتجتمع كل هذه القيم في اطار التوحيد الذي يعدّ أكثر الأنظر الدينية شمولاً، في معبود واحد وهو الله تعالى عز وجلّ

اما اذا استغلّ الدين من قبل السلطات الحاكمة لحفظ مصالحها فستحصل أسوأ فاجعة يسحق فيها الانسان في الانظمة المعادية للانسانية ويصبح الدين شهيداً في سجلات التاريخ.

ان رسالة المفكر الحر تتجلى في العمل على اتقاذ هذه الضحية واحياء شهد التاريخ هذا لا نفيه وتكذيبه وتلوينه، فإن لم يقم المفكر الحر بذلك فانه يكون شريكاً لأعداء البشرية من الجلادين والسحرة والكهنة والفراعنة الذين اغتالوا الدين وأردوه قتيلاً خدمة لمصالحهم الطبقية الضيقة.

نعم، لقد لعبت الاديان الرسمية دائماً دوراً طبقياً قذراً ضد الناس والانسانية ولصالح الطبقات الحاكمة، ولكن ألم يكن للفلسفة والعلم

والفن والأدب والصناعة نفس هذا الدور عبر التاريخ؟
اذن ماذا على المفكر المسؤول ان يفعل؟ هل عليه ان يحرر هذه القيم من الاستئثار الطبقي ام عليه ان ينقيها من الاساس ويوقف بوجهها بشكل مطلق؟

لقد كان العلم والفن والصناعة والمحران في خدمة اصحاب القصور ولم يكن للطبقات المحرومة اى نصيب من العلوم والفنون، ولكن ألا يدعو الى السخرية ان نقرر اليوم الوقوف بوجه العلوم والفنون كونها كانت تخدم الطبقات الحاكمة فقط؟

ان علماء الاجتماع يعتقدون اليوم اكثر من المسلمين أنفسهم بأن الاسلام هو دين اجتماعي واقعي يؤمن بالطبيعة والاقتصاد والاجتماع بل هو دين سياسي بحت، فقد عدّ القرآن الكريم «القائمين بالقسط» في عداد «الانبياء» و«حزب الله الغالبين» ووعد المستضعفين الذين سحقتهم الانظمة اللا انسانية بإمامة الناس ووراثه الأرض مشيراً الى ان هذا الأمر سيتحقق لا محالة وانه امر جبري ومحتوم، وقد كان النبي (ص) يؤكد على الحياة المادية بصفتها مقدّمة جبريّة للحياة المعنوية ويعلن رسمياً أن:

«من لا معاش له لا معاد له» وقد وقف (ص) حياته في سبيل تحطيم نظام الترف الفكري والاجتماعي والاخلاقي والاقتصادي. فكيف يمكن مقارنة هذا الدين مع الدين الصوفي الذي يعتقد بأن فوز

الانسان وفلاحه لا يتحقق الا بالزهد والعبادة والرياضة والانتزواء واعتزال المجتمع والمصير الاجتماعي بل حتى نسيان المجتمع والعالم؟! وكيف يمكن الحكم على هذين الشئيين المتناقضين والتطين المتضادين بحكم واحد؟!!

فهل يمكن ان يكون هنالك مفكر عاش المجتمع الاسلامي وحصل على حد أدنى من المعرفة عن الاسلام ولم يستطع التمييز بين الاسلام (الدين الحاكم في التاريخ) والاسلام (الدين المحكومة والضحية والشهيد) وهل يصح له ان يصدق بأن الخلافة الاموية والعباسية والحكومات الوارثة لها هي استمرار حقيقي لرسالة نبي الاسلام (ص)؟!!

ان هذا الاعتقاد هو بدرجة من السذاجة بحيث اننا لا نجده الا بين العوام الذين كانوا ضحية لأجهزة اعلام الجباية ومن المستحيل ان نراه بين المفكرين الواعين الذين يعرفون تاريخهم حق المعرفة.

ان الفكر والايديولوجيا يختلف تماماً عن الطب والتكنولوجيا ولا يمكن اقتباسه من نتاجات الآخرين ومن مخطوطات علماء اوربا، الفكر هو الوعي وامتلاك عينين بصيرتين قادرتين على رؤية الحقائق. والخطوة الاولى لكي يصبح الانسان مفكراً هو التعرف الدقيق والحقيقي على التاريخ والثقافة الذاتية.

فهل يصح لأي مفكر معتدل ان لا يرى الاسلام في حياة محمد

ورساته ومسؤوليته ويتخذ اعمال وممارسات أجهزة الخلافة معياراً في حكمه على الاسلام؟ وهل يصح له ان لا يرى علياً (ع) الذي لم يعش اي انسان ثوري في العالم مثل حياته ولم يقاتل اي انسان مثل قتاله ولم يحكم اي انسان مثل حكمه، ويتخذ وعاظ السلاطين معايير في تقييمه وحكمه؟ وهل يسوغ له ان لا يعرف اباذر الذي راح ضحية للصراع مع الرأسمالية والطبقة الحاكمة المستجدة ويتخذ عثمان الذي قضى عليه، منطلقاً لفهم الاسلام ومعرفته؟ وهل يصح له ان لا يعد بلال الحبشي الذي كان يرى في الاسلام حريته من الرق كصدّق اجتماعي بارز لدين التوحيد، ويعدّ عبد الرحمن بن عوف الذي كان يمتلك الف غلام وجارية مصادقاً غيبياً لهذا الدين الحنيف؟ وهل يصح، له ان يتخذ سلسلة الخلفاء والسلاطين الذين ورثوا الجاهلية وقلدوا الأكاسرة والقيصرة وينقض النظر عن سلسلة الشهداء من ابناء النهضة الاسلامية الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقضوا نحبهم في سبيل اعلاء كلمة الله في الارض؟ وهل هنالك مفكر لا يعلم اليوم ان جميع الاديان الكبيرة كانت في بادئ الامر تمرداً وعصياناً على القوى الحاكمة وثورة لاتخاذ الناس من السلطة والعبودية؟ غير ان النظام الطبقي الحاكم يمسح لصالحه دائماً ثمار الحركات الاجتماعية ويستخدمها من أجل تحكيم وجوده وتثبيت سلطانه... ألم تصح «الاشتراكية الديمقراطية» في اوربا اكبر مدافع ومحافظ على النظام الرأسمالي وأقوى مانع لحصول الثورة

العمالية العارمة رغم أنَّ الاشتراكية والديمقراطية كانتا تمرتي أزكى الدماء وأعز الشهداء وأرقى الرسائل الفكرية التحررية البشرية؟

فلو لم يكن البابا وماركس لأثمرت النهضة العارمة المعارضة للنظام الطبقي الرأسمالي الاستغلالي التي تطالب بإتقاذ الإنسان وتحريره من قيود المادية العمياء والبرجوازية البشعة وتمكينه من تكوين فطرته الانسانية الحقّة وعرض قيمه الوجودية وإبراز صوره الاستعدادية بواسطة تحريره من قيود الجشع والعمالة وتدوين فلسفة تاريخه لا على أساس نفي الدين بل على أساس ربط هذه النهضة الانسانية العارمة بنهضة الأتنياء الذين يعتبروا من بين صفوف الناس وحطّموا بفؤوس التوحيد آلهة الشرك والأصنام التي كانت رموزاً للفرقة العرقية والقومية والطبقية والقبلية، ودعوا الناس الى الفلاح والحرية والعدل والمساواة والتقوى ورفض الظلم والجور والجهل والخرافة والسحر والتلقّ بالدنيا. وفي هذه الحالة ستتصير الحقيقة وستركز الاشتراكية على الارادة والهدف المقدس الذي ينبثق عن عمق الفطرة الانسانية التي سعى الانسان الى تحقيقها طوال التاريخ بدلاً من ارتكازها على ألوية العوامل المادية الديالكتيكية العمياء التي تعمل بشكل جبري ولا تتدخل فيها ارادة الانسان قط، وستكون الطاقة الدينية الهائلة في أنحاء العالم وخصوصاً في العالم الثالث سنداً معنوياً وروحياً وفكرياً لهذه النهضة بدلاً من ان تكون سداً ومانعاً كبيراً تستغله

ايادي الاستعمار والرأسمالية.

فعلينا نحن المفكرين في هذا العصر وخصوصاً المفكرين في العالم الثالث وبالذات عالما الاسلامي ان نخلص أنفسنا من نتائج النزاع الفكري بين البابا وماركس ونربط الروح الشورية والهدف المقدس والنزعة الشمعية المطالبة بالعدالة والمناهضة للاستعمار والرأسمالية برسالة التوحيد التي طالما ناهضت الشرك بمختلف أشكاله الفكرية منها أو العرقية والقومية والطبقية، لنصل الى الغاية الكريمة المثلى وهي المساواة بين الناس في توزيع الثروة، ولكي ندوّن «فلسفة القدر التاريخي» بالشكل المطلوب ولكي نثبت للجميع أنَّ النظام الرأسمالي يجرّء الانسان ويمسحه ويمثّل به وأنَّ الدين الذي يدعو الانسان الى التكامل والتحليّ بالقيم الاخلاقية المتعالية لا يمكن له ان يبقى في هكذا نظام بل سينعدم مع انعدام الماهية الانسانية، فان لم يفعل فما هو بدين بل خرافة. وأنَّ الاشتراكية الحقيقية القادرة على صنع مجتمع عاير من الطبقات لا يمكن لها ان تتحقق إلا عن طريق الدين، لأنَّ الناس ما لم يتربوا تربية اخلاقية ومعنوية صحيحة تمكّنهم من ايثار حقوقهم من اجل الوصول الى العدالة الاجتماعية سوف لا يكون يوسعهم صنع مجتمع تسوده العدالة الاجتماعية، إذ الحقوق ليست متساوية أبداً، وان النظام الماديّ (Materialism) يؤول الى النظام الفردي (Indiridualism) لا محالة والمكس صحيح أيضاً. كما أنَّ الدين

لا يمكن له أن يتحقق قبل أن يتخلص المجتمع من قيود الطمع والاستغلال والاستثمار والقواصل الطبقية ففي هذا المجتمع وحده يستطيع الانسان ان يتخلص من المسخ والاستحالة الى «شيء» في نظام الماكينة والرأسمال والذويان في نظام المال والاستهلاك والتحول الى فريسة او حيوان مفترس في نظام العلاقات الطبقية، وفي هذا المجتمع فقط يستطيع الانسان أن يعرف نفسه ويتكبر على أصالة وجوده ويكون فطرة نوعه ويستعرض قيمه الانسانية المتمايلة فتتكمّل ذاته ويتخلق بأخلاق الله ويصبح خليفته في الأرض وهذه هي دعوة الدين التي لا تتحقق إلا في مجتمع غير طبقي يركز على أساس «الكتاب والميزان والحديد» لا على أساس الجهل والتمييز والضعف وهذا هو معنى تحقق التوحيد في الحياة البشرية.

ندوة للإجابة على

الاسئلة والاختقادات

س : ان أغلب النصوص التي استندتم اليها في كتاب «معرفة الاسلام»^(١) في خصوص نقل وقائع تاريخ الاسلام هي من مصادر أهل السنة ، مع الأخذ بنظر الاعتبار ان تلك الوقائع لها تأثير اساسي في اصول عقائد الشيعة وان احتمال التحريف والتغيير في المصادر التاريخية لأهل السنة قوي جداً، لماذا لم تستندوا الى المصادر الشيعية في موارد الاختلاف أو تشيروا اليها في الهامش على الأقل ؟ هل هناك دليل مقنع على اختيار هذه المنهجية ؟

ج : نعم هناك أدلة عديدة:

١ - لقد قلت في مقدمة مقالة «من الهجرة الى الوفاة»، وهي جزء من كتاب (معرفة الاسلام) وفي كتاب «محمد خاتم الانبياء» أيضاً اني استندت في كتابة السيرة النبوية الشريفة غالباً على نصوص الاخوة أهل السنة وأتوقع من الاخوة أهل السنة أيضاً ان يستندوا على نصوص اخوتهم الشيعة في هذه المجالات (وخصوصاً في المجالات التي يوليها الشيعة اهتماماً خاصاً) فإنه بهذه الطريقة فقط يمكن التقريب بين هذين

(١) اسلام شناسی .

الأخوين اللذين تباعدا عبر القرون.

٢- حاولت استخراج «ما يهتم به الشيعة» من مصادر أهل السنة، لأنه لا يمكن الشك في أصالة العقائد المذهبية التي جاءت على لسان المذهب المخالف، وهذا ما دعاني لرسم وجه الإسلام في كتاب «معرفة الإسلام» بخطوط شيعية أخذتها من علماء السنة، وأنها لعمرى علامة بيّنة لأولي الألباب تدلّ على حقانية الشيعة وأصالة مذهبهم. وقد عمل بهذه الطريقة الكثير من علماء الشيعة العظام من قبيل العلامة الأميني في كتابه «الغدير» والسيد شرف الدين في كتاب «المراجعات» وغيرهم من العلماء الأفاضل^(١). وهذا هو سبب القيمة العلمية لتناجاتهم، وهذه هي الطريقة الوحيدة لخدمة التشيع وإثبات أصالة هذا المذهب لأهل السنة ولكل من يرى التشيع مذهباً متأخراً أو يعتقد أنه من صنع العجم والبرانيين. إلا أن هذا الأمر تحول إلى «اتهام» بالنسبة لي فقط! لأنه انتشر بين الرعاع والمخادعين ومن ورائهم أولئك الذي يرتزقون على الجهل والفرقة واستغلال الناس؛ الذين يسمون الخدمة خيانة والخيانة خدمة، ببساطة.

٣- طبقاً للطريقة العلمية المتداولة في كتابة التاريخ، يجب

(١) حتى أن آية الله محمد الصدر نقل جميع الروايات المتعلقة بالامام المهدي (ع) في كتابه «موسوعة المهدي» عن النصوص والمصادر السنية ولم يستند على كتب الشيعة ونصوصهم قط.

الاستناد على أقدم النصوص، أي أقربها إلى زمن الواقعة من الناحية التاريخية. إن هذه الضابطة وإن كانت غير دقيقة مئة بالمئة إلا أنها تعدّ ملاكاً جيداً في تقييم النصوص التاريخية، وبما أن نصوص الشيعة في «التاريخ والسيرة» هي نصوص متأخرة من الناحية التاريخية (بسبب الوضع السياسي المتأزم الذي عاشه الشيعة عبر التاريخ) آثرنا اختيار نصوص أهل السنة كونها أقدم تاريخياً من نصوص الشيعة.

٤- إن اتهام جميع المؤرخين والمفكرين المسلمين الذي لا ينتمون إلى المذهب الشيعي أو لا تطبق جميع عقائدهم مع هذا المذهب بتهمة المخالفة لأهل البيت هو أمر بعيد عن الأنصاف والدقة.

إلا أن تلقين العدو الأجنبي الذي لا ينتمي إلى أي من المذاهبين لا السني ولا الشيعي جعل أغلب الناس في بلدنا يحملون هذا التصور الخاطيء. علينا أن نعلم أن مخالفي العترة الشريفة هم النواصب (كانوا أقلية صغيرة ولم يبق منهم إلا النذر اليسير) وهناك بعض المفرضين وعدد يسير من أهل السنة ممن تأثروا بتلقين النواصب أو كانوا عملاء للأجانب والأعداء.

لقد حاول العدو طوال السنين الماضية أن يلقن الشيعة بأن جميع الأخوة أهل السنة هم من النواصب كما حاول أن يلقن السنة بأن الشيعة هم من الغلاة القائلين بألوهية علي (ع) الفرقة التي يعتقد الشيعة أنفسهم بظلالها وشركها!

فإن قلنا أن جميع المؤلفين المسلمين وجميع الكتب الإسلامية المعتبرة هي كتب تخالف أهل البيت (ع) وزعمنا أن فضائل علي (ع) وحرمة الائمة الأطهار (عليهم السلام) لم يعترف بها إلا مؤلفو الأقلية الشيعية وكتّابها، وأن جميع المذاهب الإسلامية والعلماء والمؤرخين والمحدثين المسلمين من غير الشيعة هم من المخالفين للإمام علي (ع) وأبنائه الديّامين، فإننا نكون قد أصدرنا حكماً ظالماً لا أساس له من الصحة، وقد يكون ناجماً عن عدم اطلاعنا أو قلة إنصافنا وشدة عصبيتنا، ومثل هذا الحكم ليس لصالح العقائد الشيعية وعلى خلاف الحقائق الوثائقية المتفق عليها والتي تشكل المبادئ الأساسية لهذا المذهب الحق، لأن كل من تمرّس على قراءة الكتب التاريخية وكتب الحديث الإسلامية الشهيرة يعلم أن جميع أصول العقائد الشيعية الهامة قد أوردت بدون استثناء في المصادر الرئيسية لأهل السنة وفي كتب الحديث والسيرة والتاريخ والمنسوبة لغير الشيعة. وعندما نرى أن جميع عقائد الشيعة موجودة في مصادر وكتب أهل السنة القديمة، أليس من التضعيف للشيعة ولبيادتهم أن تنهم جميع تلك الكتب والمصادر الإسلامية ونشكل في مصداقيتها جميعاً، زعماً بأن فضائل علي (ع) والعتره الشريفة لم تذكر إلا في كتب الأقلية الشيعية ولم يُنصَر إليها في أي من المذاهب والكتب الأخرى سواء العلمية منها أو التاريخية والروائية والكلامية والتفسيرية وإن أشير إليها فقد رُجِّح فيها مثلاً

أبو بكر وعمر وعثمان على عليٍّ ورجّحت عائشة على فاطمة ورجّح الخلفاء على الائمة!

إن هذا الادّعاء ليس صحيحاً لأننا لا نجد فضيلة لعليٍّ وأهل البيت (ع) إلا وقد وردت في هذه الكتب، وقد أشارت أكثر هذه الكتب إلى أفضلية عليٍّ وأهل البيت (ع) على مطلق الخلفاء والصحابه فيما وجّه الكثير منها ألّذع الانتقادات إلى الخلفاء ونقل الكثير منها عيبيهم وأُثّر على نقاط ضعفهم، وقد شمل هذا النقد كل الخلفاء حتى الشيخين وخصوصاً عثمان بن عفان.

٥- لقد انتقد بعض السادة ومنهم السيد الأنصاري القسبي أو (الآراكي؟) الذي كان يحاضر في جامع البزازين في أيام محرم في السنة الماضية، طريقتي في التحقيق والتي استندت فيها على الكتب التاريخية لأهل السنة وكان هذا النقد، النقد المنطقي الوحيد الذي تعرّضت له في التحقيق، إذ لم يراع أحد غير هذا الرجل المنطق والأدب في النقد.

لقد عرض السيد الأنصاري في انتقاداته نقاط ضعف الكتب التي استندت إليها (حتى تلك التي ليس لها أي ارتباط بتحقيقيات ككتاب صحيح البخاري...) وأثبت أن هذه الكتب تحتوي على احاديث ومضامين تاريخية ضعيفة (وحتى مزيفة) ممّعة بذلك الطريقة الرائعة التي اتخذها العلامة الأميني في «الغدير» ثم قال مستائلاً: هل من

الصحيح ان نجعل هذه الكتب مصادر لتحقيق؟

ان هذا الرأي هو رأي صحيح بنسبة خمسين بالمئة، والصحيح فيه هو وجود المضامين الخاطئة والأحاديث الضعيفة او المزيفة في تلك المصادر، إلا ان النتيجة التي خرج بها السيد الأنصاري تبدو غير صحيحة من وجهة نظري لأن اختيار المحقق لبعض الكتب كمصادر في تحقيقه لا يعني بحال انه يؤيد كل ما في تلك الكتب بدون استثناء بل أنه يؤيد الشيء الذي نقله من ذلك المصدر لا أكثر ولا أقل. ولو كان استنتاج السيد الأنصاري صحيحاً لما استطاع اي كاتب او محقق (في أي مجال) أن يجد كتاباً يستند إليه ويتخذ مصدره في تحقيقه لأننا لا نعرف كتاباً يتصف بالعصمة من ناحية السند أو الدلالة سوى كتب الوحي التي لم يسلم منها من التحريف إلا القرآن الكريم. وعندما يكون الحديث عن التاريخ يزداد الطين بلة لأننا لا نعرف كتاباً تاريخياً يمكن تصديق جمع منقولاته بدون استثناء.

ولكن عندما يصل الأمر الى يصبح الخطأ المطيعي ذنباً لا يغفر ويلقن عوام الناس انه اذا ارتكب شخص من امثالي خطأ في احد كتبه او محاضراته فإن كتابه بل جميع كتبه وحتى وجوده سيكون جريمة وكفراً كما صرح احدهم بقوله ان شاباً مسلماً مؤمناً اراد ان يذهب ويخلص الناس من وجوده - أي وجودي أنا - بطلعة خنجر، بينما نرى في منطق الدين العلمي انه اذا اخطأ المحقق في رأيه - حتى لو كان

مجتهداً وفقهياً ومرجعاً لتقليد كل الناس وبسبب خطأ بخطئ الملايين من الناس - فإن له اجراً في عمله : «للمصيب أجران وللمخطيء أجر واحد»!

٦ - لقد ذكرت في مقدمة كتاب «معركة الاسلام» اني اردت ان ارى النبي (ص) في المدينة المنورة من اقرب فاصل زمني لأكتب سيرته بطريقة كأنني كتبها قبل ألف سنة (معركة الاسلام ص ٤٥١) فهل يوجد مصدر بهذا القدم والاعتبار سوى سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري؟

٧ - لقد ذكرت في تلك المقدمة: «اني تصرفت عن وعي في الاستناد على المصادر القديمة التي يرجع تاريخ بعضها الى أكثر من ألف سنة لأنني اعلم ان أقدم مصادرونا التاريخية دوتت في زمن الحكم الأموي والعباسي وان الخلفاء والسلاطين في هاتين الحكومتين كانت لهم اليد الطولى في تحريف الحقيقة والعلم والدين لصالح حكمهم مستخدمين بذلك سياسة الترغيب والترهيب تارة، والخطط الماسكة أخرى كما كنت على حذر أيضاً من ان السياسة التي تركز على النظام القبلي وتجعل الدين آلة لها هي اسوء آفة تصيب «الدين والتاريخ». ولذلك سميت قدر الامكان الى ان اصون نفسي من الألاعيب السياسية الاموية العباسية التي أرعبت كبار مؤرخينا تارة وجعلت منهم عملاء لها أخرى.

٨- لقد استندت في كتابة السيرة النبوية الى سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري، وقد طُعن البعض ان هذين الكتابين كانا المصدر الوحيد في كتابة كل السيرة النبوية، ولا عجب في ذلك لانهم قد لا يعرفون شيئاً عن فن كتابة التاريخ فان هذا المنهج في كتابة التاريخ يؤول الى موضوع معقد تختلف فيه الآراء وهو نفس المنهج الذي يستخدم في تصحيح الكتب ذات النسخ المتعددة والمشتتة لكي يتضاءل احتمال الوقوع في الخطأ الى مستوى معقول.^(١)

ومن المثير للدهشة هو ان نص السيرة النبوية التي دوتها في ثلاثة فصول «من هو محمد؟»، «تحليل شخصية محمد» و«ملاحم محمد» تختلف تماماً من ناحية الروح والرؤية والحكم والتحليل عن سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري، وأما من ناحية الأخبار ونقل الحوادث العادية او الحوادث المتفق عليها في حياة النبي (ص) (من قبيل شرح

(١) كما يستند الفقهاء في المذهب الشيعي الى الكتب الاربعة: «الكافي»، «التهذيب»، «الاستبصار» و«من لا يحضره الفقيه» في الوصول الى الحكم الشرعي، غير ان هذا لا يعني انهم يقتبسون مضامين هذه الكتب او يترجمونها او ينقلون الفتاوى بل انهم يجتهدون في الوصول الى الفتوى ويرفضون بعض المضامين المنقولة في هذه المصادر بل ينكرونها بشدة من قبيل القول بتحريف القرآن الذي ورد في كتاب «الكافي»، (المقصود بتحريف القرآن هو حذف بعض الآيات القرآنية من القرآن الكريم حيث نقل كتاب «الكافي» وبعض الكتب الأخرى روايات في هذا المجال، ولم يزعم أحد إضافة شيء الى القرآن).

الحروب وتوقيع الاتفاقيات والحوادث والاضاع العامة...) فليس هناك خلاف بين المذهبيين السني والشيعي وان كان ثمة خلاف فهو نادر ولا يرتبط بالمذهب الشيعي أو السني، وأما بالنسبة لموارد الاختلاف التي هي محل اهتمام السنة والشيعة والتي ترتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بقضايا خاصة تتعلق بالمذهبيين فقد اجتزت فيها حدود هذين الكتابين بل جميع كتب اهل السنة ولم أبحث في الكتب التاريخية الشيعية فحسب بل بحثت في كتب التفسير والحديث ونصوص كتاب نهج البلاغة وحاولت العثور على الحقائق التاريخية كما هي. ولو ألقى القاريء المطلع نظرة عابرة على كتاب «معركة الاسلام» ورأى مضامين من قبيل: علي في معركة احد (ص ١٨٣)، علي في حنين (ص ٣١٨)، غضب علي (ص ٣٦٠)، مهمة علي الخاصة في ابلاغ البراءة (ص ٣٨٠)، قدوم علي من اليمن واستنائه (ص ٤١٩)، مصير الائمة بعد النبي (ص ٤٢٣)، الإمامة وعلي (ص ٤٢٧)، عصبة أبي بكر في وجه علي (ص ٤٣١)، غدير خم ونزول آية تكميل الدين بعد خطبة الغدير (ص ٤٣٢)، المماطلة في ارسال جيش اسامة (ص ٤٣٣)، احضار علي للصلاة (ص ٤٤١)، طلب القلم والدواة للوصية (ص ٤٤٣)، التأمر للحيلولة دون تدوين الوصية، نداء النبي الصامت، رأس النبي في حجر علي (ص ٤٤٦)، لم يجب أحد سوى علي (ص ٤٩٠)، عصبة أبي بكر (ص ٤٩٣)، أبو ذر (ص ٤٩٥)، علي وأبو ذر (ص ٥٨١)... لأدرك مدى

استقلالي عن كتب أهل السنة ومدى نجاحي في استلال مبادئ الشيعة من لسان وقلم أهل السنة ومصادره الرئيسية، ولأدرك السبب الذي جعلني أكتب أحد فصول الكتاب تحت عنوان «موت النبي» وأشرح أحداث السنة الأخيرة من حياته في هذا الفصل وكيف أنني سعت بشكل مباشر أو غير مباشر إلى عرض ملامح عليّ في وجه النبي (ص) وحاولت أن أعرض حقيقة اهتمام النبي بعليّ وعنايته به في كلامه وعمله وجميع حالاته وتصرفاته وحتى قراراته السياسية والعسكرية، خصوصاً في السنة الأخيرة من عمره، وسيرى القاري أيضاً أن قلبي واسلوبي يتغير عندما يكون الحديث عن علي (ع) وأن كلماتي تكاد أن تطير شوقاً عند وصفه وتوشك أن تلتفت حول نفسها ألماً عند بيان آلامه واحزانه وسوف يرى أن الذين حاولوا إيهام الناس بأن هذا الكتاب يتنافى مع الفكر الشيعي هم بعيدون كل البعد عن الانصاف مهما كان دافعهم وهدفهم.

س: هناك شائعة تقول أنكم لا تؤمنون بخلافة الامام علي (ع) طبقاً لحديث غدير خم المروي عن النبي (ص) غير أن كتابكم «معرفة الاسلام» يفند هذه الشائعة. الرجاء الافصاح عن رأيكم في هذا المجال بشكل صريح وبدون أي إيهام:

ج: أعوذ بالله! فكتاب «معرفة الاسلام» موجود وقصة الغدير المذكورة فيه بوضوح وقد أثبت في الكتاب عدم كفاءة أي شخص كان

يحتمل أن يلتفت الناس حوله بعد وفاة النبي (ص) مشيراً إلى أن علياً (ع) هو الشخص الوحيد الذي يليق به أن يحوز هذا المنصب وذكرت في الكتاب قصة الغدير بهذا أفيها.

إن شخصاً مثلي إذا أراد الافصاح عن رأيه وافكاره في الله والغدير والنبي والقرآن والامام وعلي وعمر وأبي ذر وعبد الرحمن بن عوف والحسين والامام الموعود والدجال والدعاء والحج والامامة والعدل و... فليس امامه سوى «الحديث» و«الكتابة» ولكن كيف به لو كان الناس في مجتمعه لم يؤدوا انفسهم على «الاستماع» و«القراءة»؟! مثلاً أنهم يقولون: انك لم تطرح مسألة الولاية بشكل واضح وصريح ولم تتحدث عن حق علي (ع) بشكل واف عندما تحدثت عن الشورى في فصل «قواعد الاسلام» في كتاب «معرفة الاسلام» وهذا كلام صحيح غير أنني ذكرت في مقدمة الكتاب أنني أخذت هذه «القواعد» من «فريد وجدي» وإنما تشكل مجموعة دروسي الاكاديمية في تاريخ الاسلام في النصف الأول للسنة الدارسية وقد خصصت النصف الثاني من السنة الدراسية للبحث في الولاية والامامة وموضوع السقيفة. وقد طبع هذا البحث ونشر في الأسواق.

صحيح اني لم اذكر شيئاً عن الولاية والامامة في هذا الفصل الذي نقلته عن فردى وجدي غير اني كتبت عشرات الصفحات في نفس الكتاب في بحث السيرة النبوية وذكرت عشرات المرات فضيلة

علي وحقه وامامته وعرضت بضعف الخلفاء وعصبة أبي بكر وضرورة العمل بوصية النبي (ص) ونقلت قصة القدير بتفصيل واستنكرت مبدأ البيعة والشورى والنظام الديمقراطي في الحكم. ثم اني كتبت بعد كتاب «معرفة الاسلام» أكثر من ألف صفحة عن امامة أهل البيت وعقائد الشيعة وتاريخهم وقد طبعت هذه الكتب أكثر من مرة وبأعداد غفيرة جداً، كما سجلت لي محاضرات عديدة في هذا الموضوع قد يتجاوز عدد ساعاتها عن الخمسين ساعة ووزعت آلاف الاشرطة المسجلة في انحاء هذا البلد بحيث يعرف كل اطفال المدارس - ممن ألقى السمع وهو شهيد ولم يكن له اي غرض او مرض - شيئاً عن آرائي وافكاري في المذهب الشيعي كما أقيمت في السنوات السبّ الماضية في حسينية «الارشاد» أكثر من مئتي محاضرة حول الشيعة والولاية واهل البيت (ع) وقد سجلت كل هذه المحاضرات ووزعت في الاسواق ويمكن الحصول عليها أو تسجيلها بكل سهولة. كما كانت جميع الفعاليات المسرحية التي اجراها الطلبة الثّقانون في الارشاد بدون استثناء تختص بالمذهب الشيعي من قبيل: أبي ذر الغفاري، الحسين وارث آدم، ثورة المعذومين الشيعة (سريداران)، ثورة التوابين و...

وأما في موضوع مسألة الولاية فإنّ الكتاب الوحيد الذي كتب بلغة علميّة وبأسلوب سلس وارتكزت مضامينه على اساس الدراسات التاريخية والقرآن والسنة النبوية الشريفة، (لا على اساس التهريج

والسب والشتم والافتراء والاستناد الى امور تتنافى مع روح الاسلام والتشيع والعقل السليم وتسبب الاساءة للشيعة وهتك حرمتهم) هو كتاب (الخلافة والولاية من وجهة نظر القرآن والسنة) والذي نشرته حسينية الارشاد حيث يضمّ هذا الكتاب بين دفتيه موجزاً ملخصاً للدراسات العميقة التي قام بها الاستاذ محمد تقي شريعتي والتي تشتمل على أقوى الدفاعات العلمية عند الشيعة وأكثرها منطقاً، فقد ردّ الاستاذ في هذا الكتاب جميع الاتهامات والشبهات التي طرحها المخالفون خلال القرون الاربعة عشر الماضية مراعيّاً بذلك الانصاف العلمي وأدب الجدل ومستنداً الى القاعدتين الرئيسيتين اللتين تتفق عليهما جميع المذاهب الاسلامية. وقد اثبت الاستاذ للأخوة السنة ولمفكرينا الشيعة ممن تأثروا منهم بأبواق المدوّ وإعلامه أو حمل افكاراً سلبية ازاء مبادئ التشيع العلوي بسبب الانحراف والتخلف الاجتماعي والفكري والاعلامي الذي يعاني منه بعض دعاة الدفاع عن هذا المذهب... اثبت لهم أنّ المذهب الشيعي هو الروح الحقيقية والمنهج القويم للاسلام وان المثقف الحرّ الذي جعل من القرآن والسنة قدوة له وتعرّف على روح الاسلام والعدالة في التاريخ واستطاع ان يخلص نفسه من شتى القيود سواء أخلّقة بني امية وبني العباس أو الحكومات التي ورثتها أو الخطط والمؤامرات الاستعمارية التي زرعت بذور الفتنة والفرقة بين المسلمين، سيأخذ طريقه شاء أم أبى الى بيت فاطمة

وسيمع الاسلام من لسان علي تاركاً وراءه قصور الظلم في دمشق وبغداد ومساجد الضرار والمصاحف المرفوعة على الزّمامح.

إلا أنّ هذه الجماعة المبتلاة بداء التحجّر والانغلاق لا تزال تنهال علينا بأنواع التّهم والافتراء وتمكّر الاجواء خدمة للاعداء رغم كل الجهود العظيمة التي بذلت في هذه المدة القصيرة ورغم ان هذه النهضة الاسلاميّة التقدمية المرتكزة على رؤية شيعة علوية تحررية قد لاقت اقبال المفكرين وأصحاب القلم وخصوصاً الشباب المثقف والطلبة الجامعيين داخل القطر وخارجه، ورغم جميع الأدلة والقرائن والمحاضرات والأعمال المسرحية والاجتماعات وملتقيات البحث والتقدّ والدروس والمعالم الواضحة والنجاحات الباهرة التي أذعن لها العدو والصدّيق.

اذن ليس بوسعنا إلا ان نتحدث ونكتب ونردّ على اشاعات الأعداء والمعرضين والأثانيين والانتهازيين وأولئك الذين يستون أنفسهم «مؤمنين» غير أنّهم لا يجيدون ما يمنهم من الطعن والتشكيل بمن وقفوا حياتهم في سبيل «الايمان» بل حتى تكفيرهم قبل قراءة ما كتبوا أو الاستماع الى أحاديثهم مكتفين بالاستناد الى المعلومات والاخبار والتّهم الصادرة عن مصدر مشكوك ومجهول وموهوم اسمه «قالوا»!

أريد أن أقول لهؤلاء الاخوة : اخوتي، نحن جميعاً ضحايا

لمؤامرة واحدة فنحن وإياكم يجمعنا ايمان واحد وألم واحد وطريق واحد، فكلّنا مسلمون وكلّنا تؤمن بكلّ وجودنا واخلاصنا بالعترة الشريفة وكل هذه الاشاعات هي من أجل ان لا نتعرف على بعضنا وأن لا نتقف وقفة واحدة في وجه عدونا المشترك.

ولهذا نرى ان تدوين الآلاف من الصفحات والتحدث مثات الساعات في اثبات التشيع والامامة والوصاية لا يغني شيئاً وأن كل ما كتبه وتحدثت به في موضوع العترة الشريفة والاخلاص لها وجميع آرائي العلمية والعقائدية والتاريخية الجديدة في موضوع عظمة علي (ع) واصالة مدرسته لا تدلّ بمكان على انتمائي للمذهب الشيعي! حسب ما تراه هذه الجماعة التي تحكم على الناس بدون مطالعة كتبهم والتدقيق في امورهم بل تستند في حكمها على اخبار وكالة (قالوا)!

اذن عليّ أن اقلّد استاذي الحبيب أبا ذر الغفاري الذي أخذت منه اسلامي وتشيعي وهدفي وألمي ومحتتي وشعاري وأشاركه في صرخته التي هزّت المدينة والشام وفي تطرفه الذي لم يراع فيه «المصالح»! فلم يجلس أبو ذر جلوس أهل العلم والتحقيق والتقدّلطرح «الحقائق» في لقيف من العبارات الفاضلة وأمام العلماء والخواص فقط رعاية للمصالح بل نراه يحمل عظماً يجده في الرزاق ويذهب الى خليفة رسول الله ويصرخ بوجهه:

«يا عثمان ألك انت السبب في فقر الفقراء وغنى الاغنياء»

ويصرخ في وجه كعب الاحبار صاحب الجلالة والاحترام والرجل العالم بالدين عند اليهود والاسلام والذي كان مرجعاً للصحابة في تفسير القرآن وفهم الاسلام: «يا ابن اليهودي أتريد ان تعلمنا ديننا؟» ثم يضربه بعظم البعير - سلاحه الوحيد - ويشج به رأسه لينفي الى الشام حيث معاوية وقصره الأخضر ليصرخ بوجهه هو الآخر: يا معاوية ان كان هذا القصر من مالك فهو اسراف وان كان من مال الناس فهو خيانة! ويذهب الى المسجد لقرأ آية ﴿والذين يكتزون﴾ ويروي الأحاديث التي لم تكن المصالح تقتضي روايتها ويصر على قراءة هذه الآية ورواية تلك الاحاديث ليثير غضب كبار الصحابة واصحاب المراكز القوية في السلطة من المهاجرين والانصار ممن اشتركوا في غزوات الرسول وكانت لهم سابقة طويلة في الاسلام. اتهموه بالكفر والعصيان والتمرد على قوانين الشرع والخروج من الاسلام والسعي الى بث التفرقة بين المؤمنين وزرع بذور الاختلاف بين المسلمين، بقي وحيداً بعد ان نفاه خليفة الاسلام من المدينة وواليه من الشام وسلقه أصحاب المصالح من الشخصيات الاسلامية بالسنة حداد وانهموه بالارتداد عن الدين والكفر بالله ورسوله والقرآن والمعاد!

قبل سبعة عشر عاماً وعندما كنت أكتب قصة أبي ذر ووصلت الى الوقت الذي نفي فيه من الشام الى المدينة، كنت استغرب من كلامه عند ما خاطب الناس متن جاء منهم لتوديعه قائلاً: ايها الناس اتي اشهد ان

لا اله الا الله واشهد ان محمداً عبده ورسوله!

ولكنني أعلم الآن لماذا فعل ذلك؟ لأن أهل الشام كانوا جميعاً ضحايا لإعلام معاوية المضلل وكانوا قد أخذوا اسلامهم من اجهزته الدعائية والتي كانت تبليغ للاسلام والشخصيات والحوادث الاسلامية بالشكل الذي تقتضيه مصلحة معاوية ونظامه وطبقته، وهذا هو السبب الذي جعل الناس يتساءلون بدهشة عندما أخبروا بمقتل علي في المسجد، فماذا كان يفعل علي في المسجد؟ أكان يصلي؟! ثم اننا نعلم ايضاً ان الامام السجاد وعمته زينب (ع) عندما دخلا مدينة دمشق وهم يسيرون امام القافلة لم يكن الناس يعرفونهم بل كانوا يشتبهونهم للحصول على الثواب لأنهم كانوا يظنون انهم من الخوارج الذين يريدون زرع بذور الفتنة. ان اسلام أبي ذر وقرآنه كانا يهددان النظام الأموي من جهة، ويعرضان للخطر مصالح الخطباء والمفسرين والفقهاء والصحابة وائمة الجمع والجماعات ممن كانوا يتمتعون لهذا النظام من جهة اخرى، وهذا هو السبب الذي جعلهم يتهمونه بالكفر والارتداد لأنها اسهل طريقة للتخلص منه. كما ان افضل تهمة في المجتمع الشيعي هي ان يتهموا الشخص بأنه ليس شيعياً بل هو من السنة والواهيين!

وهذا هو السبب الذي جعل أبا ذر يضطر الى اعلان شهادته بعد خمس وأربعين سنة من القتال والجهاد في ركاب الرسول والخدمة

والتعليم في سبيل الاسلام، والأعجب من ذلك هو ما كتبه الامام الحسين (ع) في وصيته التي أعطاها الى أخيه محمد بن الحنفية عند تركه المدينة فكانت هذه الوصية تبتدىء بهذه العبارة: «إنّ الحسين يشهد أن لا إله إلا الله...» فاعتبروا يا أولي الأبصار.

ولذا أرى من الضروري ان أعلن بصراحة عن تشييعي وعن اصول عقائدي التي كنت عليها طوال عمري وقدمت في سبيلها شيايي وعشرين سنة من دراساتي وكتابتي وكلامي وعملي وان اقول: «أنني المدعو علي شريعتي المتهم بجميع الاتهامات التي يقدر اللسان أن ينطق بها، اعتقد اعتقاداً كاملاً»:

١- وحدانية الله.

٢- حقانية جميع الانبياء من آدم (ع) حتى محمد (ص).

٣- رسالة النبي محمد (ص) وخاتمية نبوته.

٤- ولاية الامام علي (ع) وامامته ووصايته.

٥- العترة الطاهرة بصفحتها باب العصمة الوحيد للوصول الى القرآن والسنة.

٦- انّ إعلان النبي (ص) عن امامة علي (ع) ووصايته لم يتم في غدير خم فحسب، بل في واحد وعشرين مكاناً آخر استخرجتها ودرستها جميعاً.

٧- ان الشورى (البیعة والاجماع والديمقراطية) هو مبدأ إسلامي

الا أنّه لا يعمل به إلّا في حالة عدم وجود المبدأ الأهمّ وهو الوصاية المستندة الى كلام الوحي، وان التمسك بهذا المبدأ في شوري السقيفة هو تعسف باستعمال مبدأ من اجل سحق مبدأ آخر ذي اهمية اكبر وهو وصيّة النبي (ص) وحق علي (ع).

٨- انّ النبي (ص) كانت له رسالتان: احدهما ابلاغ الوحي (النبوة)، والثانية: بناء الامة (الامامة). وقد ختمت رسالته الأولى في زمن حياته (ص) إلّا ان رسالته الثانية كان عليها ان تستمر لعدة اجيال متوالية (لثلاثة قرون) تحت قيادته هو وأوصيائه الاثني عشر. بعبارة أخرى ان النبي (ص) كان خاتماً لرسالة «نبوته» وانّ الائمة (ع) كانوا خاتمين لرسالة «امامته».

٩- لم يجر التاريخ حسب ارادة النبي (ص) وتنبؤه بل اخذ ينحرف بعد السقيفة بالتدريج فانشعب الاسلام الى شعبتين رئيسيتين: التسنن وهو الاسلام الذي سترته الطبقة الحاكمة وترعرع على يد الحكام والائمة التابعين لهم، والتشييع وهو الاسلام الذي أخذ مجراه بين الأوساط المحرومة والناس المظلومين الناشدين للعدالة. فأصبح الأول اسلام الخلافة والتمييز والاستبداد والاستغلال، وظلّ الثاني اسلام الامامة والعدالة والحرية والمساواة.

١٠- ان الخلافة هي التي انتصرت في التاريخ، ولم تتحقق الامامة على الصعيد الاجتماعي فحصلت الفيبة.

١١ - أن عصر الفية (ابتداءً من غيبة الامام الثاني عشر حتى ظهوره في آخر الزمان) هو عصر مسؤولية الناس في القيادة الاجتماعية وهو العصر الذي يختار الناس فيه قائداً لهم تحت عنوان «نائب الامام».

١٢ - أن مبدأ «انتظار الفرج بعد الشدة» هو الايمان بدين الاعتراض والايمان بـ «الفلسفة الجبرية للتاريخ» وزوال النظام الاجتماعي الظالم والتمييز الطبقي الجائر زوالاً نهائياً. فمعنى الانتظار هو أن قائم آل محمد (عج) ينتظر ثورة الناس على الظلم المهيمن على العالم وان الامام الموعود المنتظر المسلح القائم الصمصام المنتقم الذي سيملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً هو الذي ينتظر في الحقيقة نورتنا.

١٣ - أن القول بأن اصول المذهب الشيعي هما «الامامة» و«العدل» وان التوحيد والنبوة والمعاد هي اصول الدين الاسلامي، قول غير صحيح لأنه يستلزم اتهام الشيعة بأن مذهبهم هو الاسلام ومعه شيء آخر، بل اعتقد ان التوحيد والنبوة والمعاد هي الاصول الثلاثة للدين بمعناه الأعم لأن الدين الذي يفتقد احد هذه الاصول ليس ديناً وان للاسلام أصولاً أخرى وهي «الامامة» و«العدل» وان التشيع لا يعني شيئاً سوى الاسلام أي القرآن والسنة وان هذه المعادلة هي المعادلة الصحيحة:

التشيع العلوي = التسنن المحدثي = الاسلام - (الخلافة السياسية + أنواع التمييز العرقي والقومي والطبقي).

١٤ - كما أومن بالتقليد (بمعنى تقليد الناس للفقهاء المتخصص في الفروع العلمية والاحكام الفقهية أو التقليد الفني والتخصصي والعلمي لا التقليد العقلي والفكري ولا التقليد في اصول الدين).

١٥ - كما أومن بالتقية لا بسبب الخوف، بل حفظاً للإيمان ولا تشبهاً بالطالين الذين لا يشعرون بأي مسؤولية بل تشبهاً بالمؤمنين الذين يجاهدون سرّاً من أجل انتصار الحق والعدل والامامة (مبدأ الكتمان في النضال) واؤمن أيضاً بتقية الشيعة في المجتمع الاسلامي الكبير تجاه المسلمين من أهل السنة كفاً للتطرف المذهبي والتعرات الطائفية وسعياً الى توثيق أواصر الود والمحبة وتحقيق الوحدة بين المسلمين ضد عدوهم المشترك.

١٦ - واؤمن بالاجتهاد بمعنى الجهد العلمي الحر الذي يبذله المتخصصون الواعون في البحث الدائم عن الحقائق الاسلامية والتكامل في فهم الاسلام والاجابة على المسائل المستجدة والمطالب الاجتماعية الملحة والمشاكل التي يواجهها الناس في كل عصر ومصر.

١٧ - واؤمن بالمرجعية العلمية ونيابة الإمام لتصدي القيادة الفكرية والاجتماعية وتمتعة الطاقات وتوظيف القوى والامكانيات من

أجل نصر الدين والاهتمام بحياة الناس وتأسيس ثقافتهم الدينية والتاريخية.

١٨ - كما أوّمن بدفع الزكاة وسهم الامام لتأمين الميزانية الاقتصادية من اجل ادارة المؤسسات العلمية والاجتماعية وتنفيذ البرامج والأهداف العلمية للمجتمع الشيعي (لا مجتمع الشيعة).

١٩ - واوّمن باقامة مراسيم الغزاء في شهر محرم وعاشوراء واحياء ذكر الائمة (ع) وتأسيس الصفوف والمجالس الدينية وحتى البكاء بمعناه الصحيح، وهو توعية الناس وتنشيط المجتمع واحياء رسالة الشهداء لا بمعنى كونه عادة وراثية سنوية، لأنّ الشهيد حيّ يرزق ولا يحتاج لمن يبكيه، بل يحتاج الى من يسير على دربه، فالشيعي هو السائر على درب عليّ والحسين وزينب والعتره الشريفة، والتشيع هو عمل حقيقي، فهو لا يعني العبودية التي تتنافى مع التوحيد ولا يعني أيضاً الحب لأنه أمر عاطفي يقتد الى المعرفة والعمل.

٢٠ - كما أوّمن بشفاعه النبي والائمة الأطهار (ع) واوّمن حتى بتراب شهيد الحرية العظيم الامام الحسين (ع) كمعامل مهمة في نبيل «الأهلية اللازمة للنجاة»، لأنه لا ينال الشفاعه في يوم القيامة الا من كان أهلاً لها^(١).

٢١ - واوّمن بالدعاء لا بوصفه وسيلة للتخدير وبديلاً للعمل

(١) راجع الآية (٢٣) من سورة الرعد والآية (٨) من سورة غافر.

والمسؤولية وطريقاً للنجاة الفردية أو طريقاً فردياً للنجاة بل عكس ذلك أي بوصفه عاملاً قوياً في تنمية القيم الانسانية المتعالية وطرح المطالبات الرفيعة وتلطيف الأرواح من الصدا والرجس، ونرى الدعاء في أكمل أشكاله في مدرسة الامام السجاد (ع) يتجلى فيه «الحب والافتقار والوعي والتضال».

٢٢ - واخيراً أوّمن بالتشيع العلوي تشيع الشهادة الأحمر لا تشيع الغزاء الأسود.

س: لقد ذكرت في كتاب «معرفة الاسلام» (طبع مشهد ص ٤٤٥) أنّ النبي (ص) ابتسم ابتسامة تدلّ على الرضا عندما رأى الناس يصلّون مع أبي بكر وطلب منه ان يواصل امامته بل حتى انه اثنّم به وصلّى الى جانبه وهو جالس. هناك سؤالان في هذا المجال، اولاً: طبقاً لما ذكرتموه في هامش الصفحة (٦١٥) والرواية التي رويتوها في الصفحة ٤٤١، كان النبي (ص) قد رشح علياً (ع) للصلاة بالناس فهل تعتقدون حقاً أنّ النبي (ص) ينسى حساسية هذه الصلاة ويغض النظر عن احتمال التصف الذي ينجم عنها ويسمح لأبي بكر - رغم ارادته - ان يهتنيء نفسه لخلقة المسلمين وادارة امورهم؟

ثانياً: هل تعتقدون أنّتم (لو فرضنا صحة هذه الرواية) أنّها دليل على موافقة النبي (ص) على امامة أبي بكر للصلاة أو خلافته في المستقبل؟

ج: هذا هو نصّ العبارة التي وردت في كتاب «معرفة الاسلام»: «في صباح يوم الاثنين... اعانته صحوة الموت على النهوض من فراشه... رفع الستار فشاهد الناس يصلّون مع ابي بكر... غَمَزَتْهُ الفرحه لانه شاهد المسجد والناس مرّة أخرى وألقى المسلمين وهم يحافظون على وحدتهم وعظمتهم رغم غيابه عنهم».

كما تلاحظون - ان السبب في ابتسامه النبي وفرحته هو اتحاد المسلمين وعظمة صلاتهم ورؤية المسجد والناس بعد مرض طويل ألم به لا صلاة أبي بكر. إلا ان افتعال كل هذه الضجة والتهم والسبب الذي صيّر صلاة أبي بكر في هذا الكتاب كقميص عثمان هو قضية تاريخية وليست عقائدية.

فالمسلمون من أهل السنة يقولون: ان أبا بكر كان اماماً للجماعة في ذلك اليوم بينما ينكر الشيعة هذا الأمر.

ان أهمية هذه الصلاة هي بسبب تشبّث أهل السنة بها لفقدانهم للأدلة والبراهين الكافية تبعاً للمثل القائل «الفريق يتشبّث بقشة»، فهم يستندون الى حديث شخص ما (عمر او شخص آخر) اذ قال آنذاك:

«سنختار لدينانا من اختاره النبي لديتنا».

هنا يمكننا الاحتجاج مع أهل السنة بطريقتين: الأول هو ان أبا بكر لم يصل بالناس في ذلك اليوم، بل ان النبي (ص) هو الذي وقف

للصلاة بنفسه. إلا ان هذا الاحتجاج لا ينتهي إلى أي نتيجة لأن طرفي النزاع سيستند كل منهما الى كتبه واسانيده الخاصة ولن يقتنع بما يحتج به خصمه.

اما الطريق الثاني فهو ان نفترض - مماشاة للخصم - ان أبا بكر صلّى بالناس فعلاً ثم تنسأل: أولاً: هل يحقّ للناس الذين اقتدوا بصلاة أبي بكر ان يختاروا الخليفة؟ وقد اثبتنا بأدلة واضحة ان العربي الذي كان يعيش قبل أربعة عشر قرناً من الزمن كان يفقد البلوغ والنضج الكافي لتأسيس حكومة ديمقراطية تتركز على حق الانتخاب والشورى.

ثانياً: هل تصحّ الشورى التي لم يحضر فيها بنو هاشم والكثير من الصحابة الكرام من أمثال سلمان وأبي ذر وعثار والمقداد وسعد بن عباد والكثير من الانصار؟ ولذا نرى أمير المؤمنين (ع) ينتقد هذه الشورى في احد أشعاره المشهورة.

وثالثاً: هل كان أبو بكر أهلاً للخلافة ولم يكن في الأمة الاسلامية من هو اولى منه بها؟ لقد اثبتنا عدم اهلية أبي بكر وجميع اصحابه (سوى علي (ع)) لهذا الأمر.

وقد صرّح الامام علي (ع) كراراً ومراراً في كتاب نهج البلاغة بأهليته لهذا الأمر وعدم اهلية غيره: «لقد تقصصها فلان وهو يعلم ان محلي منها محل القطب من الرّوحى».

رابعاً: هل تتساوى الشروط التي يجب ان يحرزها امام الجماعة مع الشروط التي يجب ان يحرزها خليفة المسلمين؟ لا شك ان شروط امامة الصلاة تختلف كثيراً عن شروط زعامة المسلمين وان هذا الاختلاف هو بدرجة من الوضوح تعيننا عن الخوض فيه. اذن فالمقارنة بين امام الجماعة وامام المسلمين هي - من الأساس - مقارنة خاطئة وان الاستدلال بهذه الطريقة هو دليل واضح على فقدان الخصم للأدلة المقنعة وعجزه عن إقامة الدليل والبرهان.

وفي الختام أود ان اذكر ان البعض أرادوا ان يثبتوا عدالة أبي بكر استناداً الى هذه الرواية فنقول في جواب هؤلاء:

أولاً: حتى لو فرضنا ان النبي (ص) أقرّ بعدالة أبي بكر فان ذلك لا يدل على أهليته للخلافة لأنه ليس من حق كل عادل ان يكون خليفة. ثانياً: ان الشيعة لا يقرّون بصحة صلاة ابي بكر وان السنة لا يوجبون العدالة لإمام الجماعة أي ان العدالة ليست شرطاً من شروط امام الجماعة عند اهل السنة، اذن ما هو الداعي للبحث والجدل مع الاخوة اهل السنة في الاقرار بصلاة أبي بكر وانكارها.

س: ان اسلوبكم في نقد الشعائر المذهبية الدارجة والدعاة اليها هو اسلوب لاذع، أليس من الأفضل أن تتخذوا طريقة المحققين المعتدلين وتكتفوا بالتحليل والنقد وتكفوا عن النكت اللاذعة التي لا تطابق الحق أحياناً؟

ج: لقد اشترتم الى موضوعين مختلفين في هذا السؤال: الأول هو ان اسلوبي في نقد الشعائر الدارجة والدعاة لها هو اسلوب لاذع، والآخر هو ان نكتي اللاذعة لا تطابق الحق أحياناً.

(والظاهر من كلامكم هو ان نكتي اللاذعة تطابق الحق «غالباً» أو «بشكل عام» أو أحياناً على الأقل).

أما بالنسبة للشق الثاني من السؤال أي «النكت اللاذعة التي لا تطابق الحق» فانها ليست قابلة للدفاع لأن الشخص الذي يقوم بهذا العمل اما ان يكون عالمياً بقيامه بعمل لا يطابق الحق واما ان يكون جاهلاً بذلك، اي اما ان يكون مغرضاً أو جاهلاً وأعوذ بالله من أن أكون من المغرضين أو الجاهلين والويل كل الويل لي ان لم اميّز الحق عن الباطل أو أن تكون حياتي عرضة للأغراض والأمراض بعد ان قضيتها - كما أظن - بالبحث عن الحق والحقيقة. إلا أنكم لم تشيروا على الأقل الى نموذج واحد طعنته - بغير حق بنكتة لاذعة، لكي أعرف ما هو ذنبي وبماذا عليّ أن أقرّ وعن أي شيء عليّ ان ادافع؟ انه اتّهام لم تذكروا فيه مورد التهمة. اذن هل سيكون الحديث عن هذه التهمة نافعاً؟

أما الشق الأول من السؤال فهو استفسار عن سبب استخدامي لهذا الاسلوب اللاذع في نقد العادات والتقاليد الباطلة - وهو انتقاد صحيح - فعليّ ان أنساءل: ألا يبرّر «بطلان» هذه العادات والتقاليد اسلوبي الحادّ واللاذع في النقد؟

بالطبع انني اعلم ان هذه الطريقة لا تتناسب مع كل زمان ومكان وهناك مجالات علمية كثيرة يجب على الباحث ان يتبع فيها طريقة علمية محضة بعيداً عن الضجة والتطرف والمواقف .

فلو كنت فيلسوفاً مثلاً وتباحثت مع فيلسوف آخر في موضوع تقدم الوجود على الماهية أو موضوع حدوث العالم وقدمه، ولو كنت صوفياً بيدي رأياً جديداً في موضوع النزاع القديم بين المشائين والاشراقيين في تمارض العقل والعشق، ولو كنت فقيهاً وحاولت مثلاً اصدار فتوى جديدة في عدم حرمة الخمر، ولو كنت اديباً وكتبت في موضوع وجوه الافتراق بين الفن والأدب، ولو كنت شاعراً ونقذت الشعر القديم وطريقة شعرائنا المعاصرين (القدماء!) الذين لا يدركون عصرهم ومجتمعهم، ولو كنت مفسراً للقرآن وأشكلت على أكبر المفسرين من الفريقين، ولو كنت واعظاً وصرحت ان الموعظة يجب ان تتبع اليوم الطريقة العلمية في التعليم والتربية وعلى الواعظ أن يكون مسلماً يعلم النفس والاجتماع والأدب وفنّ الاعلام والملاقات الاجتماعية وعليه ان يترك الطريقة القديمة المملة في الوعظ، ولو كنت مهندساً معماراً أو مؤرخاً أو غير ذلك، بطبيعة الحال كان علي ان اتخذ الطريقة العلمية في التحقيق كي لا يحترق القدر والحساء ولا تفسد كلماتي احداً بسوء فيعظم قدرتي بين العلماء!

ولكن ما علي أن أفعل! فأنا لست محققاً علمياً بل كائن ضعيف

يرهقني ثقل التعذيب والشهادة لمئات السنين من التاريخ كحبة قمح صغيرة بين مطرقة الاستثمار الخارجي وسندان الاستعمار الداخلي القاسيين. فكيف يا أخي تريد مني ان اكون محققاً فاضلاً محترماً مؤدباً موقراً؟!

عندما ذهبت الى مصر لمشاهدة الاهرام لم اذهب الى قبو الفراعنة - كما يفعل المحققون المحترمون - بل ذهبت الى قبو الآلاف من العبيد الأفارقة الذين ماتوا تحت السياط وهم ينتقلون الصخور العظيمة من اسوان الى القاهرة فكان يموت منهم يوماً العشرات والمئات ويدفنون في هذه القبور الجماعية. عندما جلست على قبور هؤلاء الأخوة شعرت انني اتحدث معهم. فكنت اتلو على قبورهم مأساة خمسة آلاف عام من الجوع والظلم والخوف والمشقة وكانوا ينحبون معي مأساة حياتهم السوداء...

قلت لهم: اخوتي مضى خمسة آلاف عام وانتم نائمون في هذه القبور إلا أنني كنت طوال هذه المدة اعيش هذا التاريخ الأسود مع الفراعنة والقيصرية والأكاسرة وامثال قارون ويلمع بن باعوراء. واليوم لجأت الى بيت فاطمة المهجور هرباً من اولئك الطواغيت وتلك القصور والمعابد والخزائن فوضعت رأسي على جدار هذا البيت ولم يخدعني منذ الف واربعمئة أي كافر ومسلم فإن في هذا البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين وزينب..

إلا أنني أرى قوماً جعلوا من هذا البيت حانوتاً لمصالحهم وجعلوا من هذه الكلمة - القبلية التي حرّرتني قبل خمسة آلاف عام من الرّق والجور والجهل - قاعدة للجور والجهل. ثم تأتي انت وتطلب منّي انتهج الطريقة العلمية الهادئة اللطيفة الناعمة المترفة في تحقيقي؟!

ان منطق انسان شيعي مثلي هو ليس منطق ابن سينا والغزالي والمحقق والمستشرق بل هو منطق أبي ذر الذي شجّع بظم البعير رأس كعب الأحبار في محضر عثمان! ان النزاع يا أخي ليس على «نظرية علمية» بل على ميراث عبد الرحمن بن عوف.

س: لقد اشدتكم في الكثير من كتبكم من قبيل: «معرفة الاسلام» و«فاطمة هي فاطمة» و«التشيع العلوي» و... بدور علماء الشيعة (الروحانيين) واشترتم الى فلسفة وجودهم والخدمات التي قدّموها إلا أنكم انتقدتم في الوقت ذاته وفي مواضع اخرى النظام السائد في المجتمع العلماني وتحدثتم في هذا المجال بشكل مطلق ولم تستثوا بعض العلماء والمدرسين والفضلاء والطلاب من انتقاداتكم الحادة. لماذا هذا التناقض؟ الاشادة والمدح احياناً واللوم والذم احياناً اخرى؟

ج: يجب ان ننق على معنى كلمة «الروحانية» ونعيّن مصاديقها في البداية ثم نتطرق الى الآراء والانتقادات الواردة في هذا المجال. اني اعتقد ان كلمة «الروحانية» ليست مصطلحاً اسلامياً ولا شيعياً بل هو مصطلح مسيحي دخل اخيراً في مفرداتنا اللغوية، فلم ترد في

توصينا الاسلامية كلمة بهذا المعنى بل ان المصطلحين اللذين يستخدمهما المسلمون بدل «روحاني» و«جسماني» هما «العالم» و«المتعلم». اذن علينا ان نستخدم كلمة «العالم الاسلامي» بدلاً من كلمة «الروحاني»، من هو العالم الاسلامي؟

انه - حسب رأيي - الشخص الذي يعرف القرآن في الدرجة الأولى ويعرف النبي (السيرة والحديث والسنة) في الدرجة الثانية ويعرف أهل البيت وسيرة الائمة والصحابة وشخصيتهم في الدرجة الثالثة ويعرف الثقافة الاسلامية في الدرجة الرابعة ويكون متخصصاً في احدى العلوم الاسلامية: الفلسفة الاسلامية، تاريخ الاسلام، علم الحديث، علم الرجال، علم الاصول، الفقه وغيرها في الدرجة الخامسة (وان كان الترتيب الحالي شيئاً آخر). اما الشخصيات «الروحانية» المحروسة المدللة المقدسة التي تشع نوراً لكنها لا تعرف شيئاً ولا تحيط علماً بأي شيء، فاني عاجز عن معرفتها ولا جدوى من أن ألوم نفسي على ذلك. فما يوسعي ان افعل؟ ان الله تعالى لم يعطني هذه القابلية لأفهم فائدة هؤلاء وإن كان عوام الناس يقدرونهم ويقدمونهم أكثر من اولئك الذين ذكرتهم في مستهلّ حديثي. انني اسئ هذا النوع من رجال الدين «الروحانيين» (لأنه لا يوجد اسم محترم آخر ليس له دلالة على اي معنى). أرجو ان لا تلوموني على هذا الرأي لأنني ضغطت على نفسي وحاولت كثيراً ان اعتقد بهذه الشخصيات المحترمة

لكّني لم انتج في ذلك فبأس من نفسي، أما بالنسبة لعلماء الاسلام فأريد ان ادّعي وهناك العشرات من الدلائل والقرائن على اثبات هذا الادّعاء بأنني فخور بكوني دافعت بجِدّ وبشكل فكري وعلمي مؤثّر وأكثر من أي شخص آخر من العلماء والخطباء والكتّاب المعاصرين عن هذه الجماعة العزيزة التي تعدّ أملاً كبيراً ورأساً عزيزاً لنا . وأما الأدلة على ذلك :

١ - عندما تحدثت في سلسلة دورس «معرفة الاسلام» عن حذف الوسيط في ارتباط الانسان مع ربّه في الاسلام، سألتني بعض الطلبة عن دور علماء الدين في المجتمعات الاسلامية فقلت ان علينا ان نميّز بين الأمر الرسمي القانوني والضرورة التي تقتضيها الحاجة، ثم أجبت على هذا السؤال قائلاً: ان الفاصل الزمني الذي فصل المسلمين عن صدر السلام والتطور والتعقيد في العلوم والمعارف وخصوصاً علم الفقه والتشعب في الفرق والمذاهب الاسلامية واختلاط عقائد المسلمين مع عقائد وقيال الشعوب الاخرى وتمدّد الفروع والحقول العلمية في المجتمعات الاسلامية المتطورة، جعل من الضروري ان يكرّس البعض انفسهم للدراسة والتحقيق في شتى مجالات العلوم والمعارف الاسلامية لكي يتسنى للآخرين (الذين شغلتهم مجالات العلم والحياة الاخرى عن درك الحقائق والحصول عليها من مصدرها الرئيسي أي النبي والائمة (ع) أو لم يكن لهم الكثير من الوقت للتفرغ

لتعلم الدين كما كان يفعل ذلك المسلمون الأوائل في صدر الاسلام) ان يتعلّموا العقائد وأحكام الدين من هؤلاء المتخصصين، وقلت ان هذا الأمر هو ضرورة اجتماعية وعلمية ثم قارنت بين المنصب الرسمي والمنصب الضروري وشيئتهما بالحراس الذين يختارهم الناس في بعض الحارات لحراسة منازلهم شعوراً منهم بضرورة ذلك والحراس الذين تعيّنهم الدولة وتطيّبهم صلاحيات خاصة بزيّ خاص ودرجة رسمية معينة . وهذا هو الفرق بين العالم الاسلامي والقس المسيحي .

٢ - ذكرت في كتاب «الانتظار» نقلاً عن (ونسان مونته) ان طالب العلوم الدينية هو بروليتاري فكري، وقلت ان هؤلاء المجاهدين السائرين في درب العلم والايمان الذين لا تتجاوز نفقاتهم عن نفقة طير امريكي كرسوا حياتهم وشبابهم لتعلم الدين في الوقت الذي يختار فيه طلبة الجامعات حقولهم الدراسية على اساس الدّخل المستقبلي المتوقّع لهذا القسم الدراسي أو ذلك .

ان طالب العلوم الدينية يقضي عمره الدراسي بزهّد لا يكاد يصدّق ولا يوجد اي ضمان لتأمين حياته بعد اتمام الدراسة والتخرّج ولا يشمل اي امتياز من الامتيازات الطلابية العادية الا أنّه وبالرغم من كلّ ذلك ينتهج هذا الطريق بصبر وايمان ووفاء لا يوصف .

٣ - قلت في احدي المحاضرات الطلابية العامة في حسينية الارشاد مخاطباً الطلبة الجامعيين: ان أُملي بطلبة العلوم الدينية هو أكثر

منكم بالنسبة لمستقبل هذه النهضة الفكرية وتوعية الناس واحياء روح الاسلام الاصيل وبعث روح الرفض والعدالة التي تتجلى في التشيع العلوي لأن حياتكم الفكرية قصيرة جداً ولا تتجاوز الأربع أو السبع سنوات، بعدها سيغفلكم روتين الحياة وستكونون بشكل لا ارادي في مخالاب الطبقة البرجوازية. أما طالب العلوم الدينية فإن عمر مسؤوليته الاجتماعية يساوي كل حياته فهو يشعر بالمسؤولية حتى الموت تجاه عقائد الناس ومصيرهم .

٤ - لقد أثبت في دراستي للمجذور الطبقية في «الحوزة» و«الجامعة» أن أكثر من ثمانين بالمئة من الجامعيين (الطلبة، الموظفين والاساتذة) ينتسبون الى الطبقة البرجوازية الساكنة في المدن وخمسة بالمئة منهم ينتسبون الى طبقة الاقطاعيين القرويين. اما الحوزيون (العلماء المراجع، المدرسون والطلبة) فينتهي خمسة بالمئة منهم فقط الى الطبقة المتوسطة الساكنة في المدينة (البرجوازية الصغيرة والكسبة الصغار) ويتنسب اكثر من تسعين بالمئة منهم الى الجماهير القروية المحرومة وأبناء الفلاحين والملاي القرويين. ويتضمن هذا التحليل نتائج اجتماعية وفق تقييم اجتماعي مفصل وشامل.

٥ - لقد أحصيت في رسالة تحقيقية كتبها لوزارة العلوم وفي مقالة «الصحراء» كوير» أيضاً الموارد التالية لرجحان الطريقة التعليمية التربوية الحوزوية على الطرق الأكاديمية:

(١) اختيار الاختصاص العلمي على اساس القيمة الفكرية لا الدخل الاقتصادي.

(٢) الشعور بالمسؤولية الاجتماعية التي تتناسب مع الاختصاص الدراسي منذ اللحظة الأولى من الدراسة.

(٣) اختيار الأستاذ بحرية تامة على اساس لياقته وقيمه العلمية.

(٤) ضرورة احتفاظ الاستاذ بوجهته العلمية والاخلاقية.

(٥) وجود علاقة المريد والمراد بين التلميذ والاستاذ.

(٦) الطريقة التعليمية المدرجة.

(٧) رواج «المباحثة» بين الطلبة بعد كل درس .

(٨) حرية الحضور في الصفوف وعدم التقيد بالمظاهر والشكليات المعقدة والادارية الجافة التي تشكل عائقاً هاماً في طريق كسب العلم.

(٩) مجانية التعليم.

(١٠) امكانية مواصلة الدراسة لعموم الناس بجميع اعمارهم وطبقاتهم وظروفهم.

(١١) اعطاء المنح الدراسية وتأمين السكن والامكانيات الدراسية لكل طالب.

(١٢) اندماج الاخلاق مع العلم بشكل طبيعي.

(١٣) الاتصال الدائمى بالجماهير.

(١٤) قبول مسؤولية القيادة الفكرية والهداية الاجتماعية للناس.

(١٥) العلاقة الوحيدة بين الايديولوجية والعلم.

(١٦) وجود «ثقافة مشتركة عامة» و«جهة واحدة» و«تنسيق كامل» بين الفروع والاقسام العلمية المختلفة رغم تعددها ووجود التخصص فيها.

(١٧) الاتصال بالماضي التاريخي والثقافي والمقائدي (الشيء الذي لا نراه في الثقافة الجديدة).

(١٨) عدم وجود أي شكل أو قالب ظاهري في تقييم الدرجة العلمية للطلبة والاساتذة وتفويض هذا الامر للناس والاعتماد على كفاءة الشخص الذاتية وقيمه الفكرية وكماله العلمي بدلاً من دوائر التوظيف وقوانين الترفيع التلقائي (التي شهتها في كتاب الصحراء^(١)) بأجاص بخارى الذي ينقع في الماء، فيصبح مساعد المدرس بعد أربع سنوات ويشكل اتوماتيكياً مدرساً ويصبح المدرس الجامعي بعد خمس سنوات استاذاً!..).

٦- ذكرت في كتاب «التشيع العلوي والتشيع الصفوي» ان علماء الشيعة دفعوا دائماً وعلى مدى ألف عام من التاريخ الاسلامي رايات

(١) كوير.

الثورة على الظلم وكانوا من المدافعين عن الحركات المطالبة بالعدالة والحرية الاجتماعية وحاكمية العلم والتقوى، وقد حرض علماء الشيعة الناس دائماً على مواجهة أنظمة الخلافة الاستبدادية الارستقراطية والحكومات التابعة لها وكانوا دائماً في طليعة الحركات الجماهيرية الثورية، وخير شاهد على ذلك حركة المردومين^(١) في القرن الثامن الهجري.

٧- ذكرت في كتاب «تاريخ الأديان» ان علماء الشيعة هم أنزه فئة أو طبقة روحانية بين جميع الأديان والمذاهب في الماضي والحاضر.

٨- ان التقوى والورع والاتصال الدائم بالجماهير والوقوف بوجه القوى الحاكمة - أو الابتعاد عنها على الأقل - هي من الخصائص الطبيعية التي يمتاز بها علماء الشيعة على رجال الدين في المذاهب والأديان الأخرى لأنهم يعتمدون من الناحية الاقتصادية والاجتماعية على الجمهير لا على الحكومات.

٩- ذكرت في كتاب «الانتظار ومذهب الرفض» ان هناك اشخاصاً ينتحلون الزي العلماني بتخطيط وتآمر القوى المعادية للناس مستغلين بذلك عصر الغيبة وأصل نيابة الامام (ع). ان هؤلاء

(١) سرمداران.

الانتحالين قد يحصلون بمساعدة تلك الأيدي الأثيمة السرية والعلنية على مقام روحاني أو وجهة مصطنعة أو مرجعية كاذبة بغية الإساءة إلى الوجوه العلمانية الحقّة والتقليل من شأنها ودورها المحوري في المجتمع .

١٠- نص الحديث الذي تحدثت به في بداية الدرس السابع عشر من سلسلة دروس «معرفة الاسلام» ردّاً على نقد غير لائق أوردته السيد (مكارم) في مجلة «في رسالة الاسلام»^(١). في البداية لم أكن أرغب في الرد إلاّ أنني شعرت أن الطلبة الذين يعرفون دروسي وآرائي جيداً استغربوا كثيراً من الأسلوب والاخلاق وأدب الكتابة في هذه المجلة الدينية المنسوبة إلى علماء الدين فرأيت من الضروري أن أدافع عن الحوزة العلمية قبل أن أدافع عن نفسي فقلت آنذاك:

أولاً: إنّ طريقة التفكير وأسلوب الكلام في تلك المقالة يخضّ صاحب المقال وليس له أي علاقة بعلماء الدين (وهذا ما أقوله دائماً عندما أواجه أي تهمة أو شتيمة من الملّبسّين بالزّي العلماني المقدس لأنّي أعرف جيداً أثرها السلبي بين المفكرين لذا أسعى دائماً إلى تبرئة علماء الدين من هذا الانتساب).

ثانياً: إنّ أي معترك ومعصية في هذا المجال توجب صرف

الأذهان عن الحقائق، لذا أنّ واجبتنا هنا هو الصمت والصبر تجاه هذه الشتائم والتهم. من هنا اضطرت آنذاك إلى التذكير ببعض الأمور، وأودّ أن يتلقّى الجميع هذه التذكرة كردّ أردّ به على كل تهجم من هذا القبيل وكأنيّ خاص بي تجاه علماء الدين والحوزة العلمية الدينية. أمّا نص المقدمة فهو كما يلي:

«...المسألة الثانية التي تعتبر مسألة مهمة للغاية هي أنّ البعض يحاول بشتى الأساليب أن يصوّروا للآخرين بأننا فئة أو اشخاص مناوئون لعلماء الدين فيتهجمون علينا تحت هذا الغطاء، والغاية من ذلك هي اثارتنا للتهجم على العلماء دفاعاً عن انفسنا لكي يستغلّوا هذا التهجم ويشيعوا بين الناس أن هنالك فئة أو جماعة من المفكرين تخالف علماء الدين. هذه هي غايتهم، وعلينا أن نصبر تجاه هذه الاستغزازات والتهم الواهية ونضع الأمر امام الآخرين ليحكموا عليه لكي تحيط هذه المؤامرة القذرة. من هنا اريد ان اقول أنّ شخصاً مثلي (يتحدث بهذا الكلام ويحمل هذه الآراء ويفكر بهذه الطريقة) قد لا يتفق مع عالم ديني في بعض المسائل وينتقد طريقته في التبليغ الديني أو طريقته في تحليل بعض القضايا ويختلف معه في الكثير من الامور - وان كان ذلك العالم عالماً دينياً حقيقياً - الا ان هذا الخلاف هو خلاف الأب والابن في الاسرة الواحدة. ولهذا اسمي ان لا أجزّ هذا الخلاف العائلي بين جيلنا والجيل السالف إلى الأثرة والأسواق لكي لا يستغلّ

العدو - عدو هذا الجيل والجيل السالف - هذا الخلاف لصالح اغراضه وأطماعه.

١١ - ذكرت في سلسلة دروس «معرفة الاسلام - حسينية الارشاد» ان رابطة الطلبة الايرانيين المقيمين في فرنسا - التي كانت تديرها بعض الأيدي آنذاك - نظمت ذات مرة اجتماعاً حضره السيد جهانگیر تفضلي. وقد تحدث في هذا الاجتماع السيد رزم آرا وتهجّم خلال حديثه على علماء الدين بألفاظ من هذا القبيل: «في ايران، عندما امر من امام مسجد أو أسمع صوت واعظ يتحدث تندهور حالتي الصحية ويستاء مزاجي، اني اكراه هذا الدين وتشمئز نفسي من رجاله، ان هؤلاء الملالي هم السبب في شقاء البلاد ويؤسها وهم القاعدة الرئيسية التي يرتكز عليها الاستعمار...».

أردت ان اتحدث الا أنهم منعوني من الحديث. انتظرت وصول الدور لي لأتحدث لكنهم لم يراعوا الدور، فما كان يوسعي إلا أن أفرض نفسي على المجلس برفع صوتي فقلت: انني استغرب من حديث السيد... لأننا لو راجعنا اليوم القبائل الافريقية البدوية لرأينا جميع افرادها يعرفون هذا المبدأ الاخلاقي الحضاري المسلم الذي يفرض علينا احترام عقائد الآخرين وآرائهم. اني استغرب من كونكم تعيشون في عاصمة الحضارة وحرية الرأي واحترام عقائد الآخرين ولم تتأثروا بهذه الحضارة اي تأثير؟!

ان الدعوة للحضور في هذا الاجتماع هي دعوة عامة، اذن انتم تحملون حضور اشخاص مثلي لم يستثفوا بعد الى درجة تجعلهم يتحملون كلامكم، فكيف تسمحون لأنفسكم بالاساءة الى عقائد اشخاص مثلي؟ ثانياً ان الدين ليس قطعة من الحلوى كي تتحدثوا عنه كما تتحدث الوحى المغناج الى زوجها فما معنى قولكم «نحن لا نحب الدين»! ثالثاً: انكم تقولون ان الملالي كانوا قاعدة للاستعمار، لكن هذا الكلام هو مسألة واقعة وتاريخ وليست مسألة ذوق كي يتسنى لكم التحدث عنها كيفما تشاؤون، بل عليكم أن تأتوا بما يبرهن على ذلك. فحسب ما تفيد معلوماتي ان جميع الاتفاقيات الاستعمارية الموجودة وقعت على يد الدكاترة والمهندسين واصحاب الشهادات العليا الذين اكملوا دراساتهم في الجامعات الغربية. فان استطعتم ان تأتوني بتوقيع احد هؤلاء الملالي الذين تخرجوا في حوزة النجف لاتفتك معكم في الكلام وشاطر تكلم هذه المقولة، إلا اني أرى العكس هو الصحيح لأننا نرى وجوهاً لبعض هؤلاء الملالي أو على الأقل وجهاً واحداً لهم في طلبية كل نهضة مناوئة للاستعمار وفي مقدمة كل حركة ثورية تقدمية تطالب بالاستقلال ابتداءً بسيد جمال والميرزا حسن الشيرازي وحتى رجال ثورة الدستور...

١٢ - لقد دافعت بكل وجودي عن علماء الدين ودورهم الاجتماعي خلال فترة تواجدي في أوروبا (من عام ١٩٥٩ حتى عام

(١٩٦٤) وتصدّيت لجميع التهم الموجهة لهم وكان هذا متزامناً مع اتفاق أغلب الفئات المتنازعة على التبل من منزلتهم ودورهم الاجتماعي. فقد دافعت عن علماء الدين في الأوساط الفكرية الأوروبية وفي أوساط الطلبة الإيرانيين بشكل مؤثر مستخدماً لذلك شتى الأساليب والطرق كالمحاضرات والتقارير والدراسات العلمية في علم الاجتماع الديني، وهذه هي حقيقة لم أتحدث عنها أبداً لأنّ الخوض فيها يستلزم نوعاً من العجب ومدح الذات وما ذكرتها هنا إلا اثباتاً لتأييدي لهذه الجبهة ووقوفي بجانبها وهذا ما يعرفه كل مطلع على الأوضاع في خارج البلد.

هذا هو رأيي في علماء الدين وذلك هو رأيي في «الروحانيين» (بالمعنى الآخر)!

والآن علينا أن نتساءل عن مصدر هذه الاشاعة التي تتهمني بمخالفة العلماء والحوزة العلمية وللأجابة على هذا السؤال عليّ أن أقول:

أولاً: إنّ القاسطين يخطون لئذ التفرقة والنفاق والتشاؤم بين المثقف والمتدين، والحوزة والجامعة، والطالب الجامعي والطالب الحوزوي، والخواص والعوام، وأنّ الشيء الوحيد الذي من شأنه أن يبطل هذه الخطة هو عمل «جماعة من المثقفين المتدينين» على بناء جسر يسدّ هذه الفجوة الكبيرة.

فاليوم يجلس الطلبة الجامعيون والحوزويون جنباً إلى جنب في حسينية الارشاد ويرجع المثقفون - ولأول مرة - إلى علماء الدين ويقفون إلى جانب الجماهير وهذا أمر لا يروق للقاسطين، لذا نراهم يخطون دائماً لإثارة الضجة وزرع الفتنة بين الفريقين بشتى الوسائل والأساليب كالزور والتزوير والشتم والافتراء والتهم والاشاعة وحتى الكلام الفاحش والظعن بالأعراض.

ثانياً: عندما قرّروا التهم عليّ وعلى حسينية الارشاد رفعوا شعاراً فجاً وغير مدروس في باديء الأمر. فالقميص الذي رفعوه ليوحوا للناس انه قميص علي سرعان ما ظهرت حقيقة كونه قميصاً لثمان فقد اختاروا في البداية ومن بين التهم الموجودة كالانتساب إلى النصرانية واليهودية والبابية والشيوعية والوجودية والشيخية والصوفية وغيرها. اختاروا أكثر هذه التهم تأثيراً في عواطف الشيعة في إيران فاتهموني بالانتماء إلى اسوء المذاهب السنية أي المذهب الوهابي، وكان هذا الاختيار صائباً من هذه الناحية إلا أنّ الشيء الوحيد الذي لم يكن في حساباتهم هو عدم التصاق هذه التهمة رغم استخدام الأتقان من صمغ الدجل والفسطة.

عمّوا بلاغاتهم على جميع الشعب والفروع وشرع عملاؤهم بإشاعة هذه التهمة، ولكن ولحسن الحظ وبمساعدة حسينية الارشاد واهتمام جماعة من الزملاء تمّ استنساخ وطبع الدروس والمحاضرات

وحتى اشرطة الكاسيت التي سجلت عليها محاضراتي، وقام الطلبة في كل المدن والكتليات باستنساخ هذه التناجات وتوزيعها على قدر استطاع شعوراً منهم بالمسؤولية تجاه ذلك وهكذا عرضت افكاري (عن التشيع واهل البيت والائمة ولا سيما علي وفاطمة والحسين والامام الموعود (ع) على اصحاب الفكر والقلم وخاب أمل الأعداء وأصبح طرح هذه التهمة في أقصى المساجد الحسينيات وحتى في مجالس الغزاة التي تعدّها النساء في البيوت امراً لا يجلب لصاحبه إلا الخزي والعار أو لظمة على الأسنان. لكنهم لم يكتفوا بهذه التهمة فاستبدلوها بتهمة أخرى ورفعوا هذه المرة شعار مخالفتنا لعلماء الدين. فالحمهم هو استفزاز العلماء وتحريكهم وتحريضهم ضدنا سواء أ بتهمة المخالفة للتشيع أو المخالفة لعلماء الدين!

بيد أنهم أخطأوا في حساباتهم مرة أخرى فكيف يمكن للتهمة التي لم تؤثر في عوام الناس ان تؤثر في علمائنا المفكرين الذين يراعون في حكمهم على الأمور، المعايير العلمية والشروط الفقهية والعقل والمنطق؟

وهكذا بادت خطتهم الثانية بالفشل أيضاً ليشروعوا بالبحث عن قميص عثمان آخر، الا ان علماءنا الاعلام ووعاظنا الأفاضل وطلبتنا الواعين انتبهوا ولحسن الحظ وخصوصاً بعد اشاعة التهمة الثانية الى فلسفة هذه المؤامرة وغرض الأعداء منها. ونحن أيضاً شعرنا بخطورة

الموقف أكثر من ذي قبل فأخذنا نخطو خطواتنا بحيطه وحذر وكان هذا الشعور المشترك هو السبب في تقاربنا والتعرف على بعضنا فعملنا من خلال هذه المعرفة دروساً كثيرة، فما أكثر العلماء والفضلاء والخطباء والمتدينين الذين كانوا يشككون بإخلاصنا وصحة رؤيتنا أو طريقتنا في التفكير والعمل متأثرين بالدعايات المشبوهة والأجواء السامة وحملات التزوير والانهام وما أكثر المفكرين والمتقنين الذين كانت لهم مشاعر سلبية تجاه علماء الدين تحت تأثير ابواق الدعاية المشبوهة. لكننا نرى اليوم مشاهد مثيرة ومفعمة بالمواقف والاخلاص من الانتباه الى انفسنا والايمان ببعضنا وازاحة الغبار والصدأ عن قلوبنا وتوطيد أواصر اخوتنا.

س: ان طريقتكم في الكتابة والتعبير تسبب الغموض والابهام للبعض فيما يستغلها البعض الآخر من يحمل افكاراً خاصة لصالح ترويج افكاره كما يستغل طريقتكم هذه بعض المعرضين الذين يتربصون الفرص دائماً كي يشوّشوا أذهان العوام من الناس بل الخواص منهم ممن لم يتعودوا على المراجعة والتحقيق في المسائل التي يسمعونها. فهل لكم ان تبدلوا طريقة تعبيركم هذه بشكل تسليق فيه امكانية الإساءة في تفسيرها وتأويلها؟

ج: أعتقد ان من المستحيل ان يبلغ خطيب أو كاتب - مهما كانت مهارته وثقافته وادبه وأحاطته بعلم اللغة - هذه الذروة من الأدب بأن لا

يكون في كلامه أي إيهام لأي قارئ أو مستمع مهما كان مستواه أو نوع تفكيره وثقافته ويسد الطريق على أي مغرض كي لا يحرف عبارة من عباراته. ففي الوقت الذي نرى فيه القرآن وهو كلام الله تعالى يزول لمقاصد وأغراض عديدة ويختلف العلماء المفكرون البارزون في فهمه وتأويله ويستنبط كل فريق وفئة وطائفة من كل آية من آياته ما لا يستنبطه الآخرون، كيف يمكن للكاتب أو خطيب عادي أن يتحدث أو يكتب بطريقة لا يمكن تأويلها وتحريفها؟

من هنا أريد أن أقول إنه كلما ازدادت الفكرة عظيمة وكلما ازدادت المعاني ظرافة وكلما ازدادت المشاعر سَعَواً وكلما ازداد الكلام جمالاً وبداعة، سيزداد معه أيضاً احتمال سوء الفهم والابهام والالتباس، والاختلاف في درك المفاهيم، والتناقض في الاستنباط وأنواع الأغراض والأمراض.

من حوار أحد الطلبة الجامعيين مع الدكتور شريعتي

الطالب : لقد انعكس تصويركم في الازدهان كتصوير «مفكر ديني» فهل انتم راضون عن هذا التصوير؟
شريعتي : لو عرفكم أحد بكلمتين مجهولتين، فهل سيرضيك هذا التعريف؟

الطالب : ان معنى هاتين الكلمتين بسيط وواضح بالنسبة لنا. فالمفكر: هو الشخص الواعي الذي يخوض في مجال الفكر، والديني: هو الذي يؤمن بما وراء الطبيعة كالايمان بالله مثلاً...

شريعتي : لو امتعن احد عملاً فكرياً (كالمحاسبة مثلاً) لكنه لم يكن واعياً فهل سيكون مفكراً؟ ولو كان واعياً ولم يحترف عملاً فكرياً فهل سيكون «غير مفكر»؟ وان كان يؤمن بالله ولا يؤمن بما وراء الطبيعة فهل سيكون «غير ديني» وان كان يؤمن بما وراء الطبيعة ولا يؤمن بالله (مثل بوذا وهيغل) فهل سيكون دينياً؟

الطالب : يبدو ان المسألة ازدادت صعوبة...

شريعتي : كما تلاحظون ان المسألة ليست بهذه البساطة. فغالباً ما يحصل سوء الفهم بسبب مرورنا على المسائل مرّة الكرام، فأتينا

تتعلق على الحقائق وكأننا نلعب في سيرنا المنطقي في العملية الفكرية. فالكلمات التي نستخدمها لاستيعاب مقاصدنا وتقل ما في اذهانتنا، غالباً ما تكون مهمة لنا ولمخاطبيننا، أو غير متفق عليها من قبل طرفي الحوار على الأقل. لكننا على الرغم من ذلك نرى ان الحوار يجري بشكل طبيعي بدون ان يشعر اي طرف من الاطراف بعدم الاتفاق على الكلمات التي يستخدمونها. والأغرب من ذلك هو اننا نرى في بعض الأحيان ان المفاوضات والمباحثات تجري على ما يرام وتسفر عن نتائج متفق عليها في ظاهر الأمر ولكننا لو امتعنا النظر في هذا الاتفاق لرأينا ان الجانبين قد اتفقا على كلام لم يتفقوا على معناه، والسبب في ذلك هو ان جانبي الحوار لم يقفا وقفاً كاملاً على معنى الكلمات الاساسية التي تبادلوها في حوارهم بل اكتفيا بالمعنى الاجمالي لتلك الكلمات. هاتان الكلمتان (المفكر والديني) هي من هذا النوع من الكلمات.

الطالب : ألا تعتقدون انكم انتقلتم الى مبحث الألفاظ ؟

شريعتي : بلى لأن الألفاظ هي الأدوات الوحيدة لبيان الأفكار وقبل كل شيء علينا ان نتأكد من دقة وصحة أدوات عملنا .

الطالب : على اي حال، ماذا تعني هاتان الكلمتان (المفكر الديني) بالنسبة لكم ؟

شريعتي : اني اعتقد ان الدين هو بمعنى «المعرفة بالذات =

(conscience) خلافاً لما تعنيه «الفلسفة» أو «المعلوم» أو «الصناعة» التي تعتبر نوعاً من العلم (science). والمفكر هو الشخص الذي يعي الزمان والمجتمع والتقدير التاريخي والعلاقات الاجتماعية والمواجهات والجهات والمصير الاجتماعي الخاص به، وبعبارة أوجز : المفكر هو الشخص الذي يعي «الوضع» أو «الحيثية» الاجتماعية الخاصة به (situation social)^(١) وهي التي يستلها الاسلام «الفطرة» وهي التي يقصدها افلاطون عندما يعرف الانسان بأنه «حيوان سياسي»^(٢).

نعم، بهذا المعنى انا راض عن عبارة «المفكر الديني» واشكركم عليها! ولكن علي أن أقول اني لست مفكراً دينياً بل اتحنى واسعى لأكون مفكراً دينياً. فاني ما زلت اسير في بداية هذا الطريق. اقول هذا كي لا يتهموني بالعجب والتعطرس.

(١) لمزيد من الاطلاع يرجى مراجعة كتابي «الطريق الثالث» و «معرفة الذات والاستثمار» للمؤلف.

(٢) لقد ترجم هذا التعريف (الانسان حيوان سياسي) بالمعنى الاعتيادي (الانسان حيوان اجتماعي) في حين تعتبر التحلة حيواناً اجتماعياً ايضاً. ان الحيوان السياسي هو الحيوان الذي يعي المجتمع الذي يعيش فيه ويشعر - بوعي - بالمصير المشترك وأوضاع الاشتراك التي تربطه بمجتمعه ولذا عرفنا الانسان بأنه «حيوان متعصب». ولا ننسى ان السبب الذي جعلنا نرسم للتعصب تصوراً سلبياً في اذهانتنا هو اننا نرى غالباً التعصب السبب في حد ذاته ليس أمراً سلباً. التعصب - كالتحزب - هو الانتماء الى العصبية بمعنى الجماعة وهو الشعور بالانتماء والارتباط بالجماعة.

الطالب : لقد ذكرت في العبارة الأولى من مقدمة سلسلة دروس «معرفة الاسلام» ان الدولة العثمانية هي رمز للاقتدار الاسلامي (معرفة الاسلام ص ١٢) في حين يعلم الجميع ان هذه الدولة هي دولة فاسدة ولا يليق بها ان تسمى دولة اسلامية.

شريعتي : ولهذا السبب كتبت في العبارة الثانية وفي الصفحة نفسها: «ان الهزيمة العثمانية لم تكن هزيمة سياسية وعسكرية فحسب بل كانت بمثابة سقوط الثقافة الاسلامية واستهلاك لقوى المسلمين الروحية والفكرية، فقد جعلت الدولة العثمانية - من الدين مادة افئوتية تخدر بها الجماهير وجعلت من الاسلام طليساً يحافظ على الارستقراطية وقاعدة عريضة يركز عليها سلطان العنصر التركي. (معرفة الاسلام ص ١٢)

الطالب : لقد علق احد السادة اخيراً على عنوان كتابكم «مسؤولية الانتماء الى مذهب التشيع» بأن اختيار هذا العنوان يكشف عن مدى حقدكم على المذهب الشيعي، فما هو تعليقكم على ذلك؟
شريعتي : انا لله واتا إليه راجعون .

الطالب : قد يشعر البعض من خلال مطالعته لكتابي الصحراء (كوير) ودرس (بوذا) الذي نشرتموه ضمن مجموعة دروس «تاريخ الاديان» ومن خلال رواية بعض الطلبة الجامعيين الذين حضروا دروسكم في جامعة مشهد واقرارهم بأنهم كانوا ينجذبون بشدة

وينسون أنفسهم اثناء تدريسكم لموضوع «بوذا»... قد يشعر البعض انكم معجبون جداً بالدين البوذي؟

شريعتي : نعم فأنا «سني المذهب» «صوفي المشرب» «بوذي ذو نزعة وجودية» «شيعي ذو نزعة دينية» «مفترب ذو نزعة رجعية» «واقعي ذو نزعة خيالية» «شيعي ذو نزعة وهابية» وغير ذلك (اللهم زد وبارك).

الطالب : لماذا لم تردوا لحد الآن على الانتقادات والتهجمات التي استهدفت كتبكم ومحاضراتكم؟

شريعتي : لقد شوّشوا اذهان شعبنا دائماً بهذا الضجيج وهذا العراك القارغ ليعكروا صفو الماء ويتصيدوا فيه، لذا لم احاول افتعال اي ضجة لأشوش بها الأذهان أبداً.

يبد أن بعض الزملاء الذين يؤمنون هم أيضاً بهذا المبدأ ارتأوا اقامة ندوة سؤال وجواب ونشرها على شكل ملزمة لتبين بعض الحقائق لمن لا يعرف شيئاً عن برامج حسينية الارشاد الدراسية والاعلامية والتحقيقية وكتبها المطبوعة ولأولئك الذين أحدثت الأشاعات المتواصلة في أذهانهم انطباعاً خاصاً أو شبهة أو ابهاماً في مسألة ما .

الطالب : اليوم وبعد مرور خمسة أعوام على نشر سلسلة دروس

«معرفة الاسلام» هل لديكم أي نقد على هذا الكتاب؟

شريعتي: لقد كانت لدي بعض الانتقادات على هذا الكتاب منذ اللحظات الأولى لنشره لأن هذا الكتاب هو مجموعة دروسي الشفهية التي أُلقيتها على الطلبة. وقد طبع هذا الكتاب تحت اشراف الطلبة بدلاً من استنساخه ومن الطبيعي أن لا يكون المعلم راضياً عن دروسه الشفهية لو تمّ تدوينها على شكل كتاب، واليوم وبعد مرور أكثر من خمسة أعوام على نشر هذا الكتاب اذكر كلام استاذي غورويش الذي خاطبني معترضاً ذات مرة: «أين كنت نائماً في لحدّام ثلاثة؟».

الطالب: كيف يعرف الناس رأيكم الموجود في كتاب «معرفة الاسلام» في عام ١٩٧٢ وذلك بعد مرور خمسة اعوام على نشره؟

شريعتي: الأمر بسيط جداً ولا يكلف سوى عشرين ريالاً فقط: ملزمة «معرفة الاسلام»، الجزء الأول والثاني (طبعة حسينية الارشاد عام ١٩٧٢).

الطالب: ما هي انتقاداتكم الخاصة في خصوص مضامين ملزمة «معرفة الاسلام» القديمة؟

شريعتي: (الف) كان علي أن أطرح موضوع الامامة في مبحث الشورى (ص ٣٨) كي أُنمّع بذلك امكانية اساءة التصرف أو سوء الفهم. فقد اعربت في هذا الكتاب عن مخالفتي لمبدأ «الشورى» و«البيعة» (لا

بشكل مطلق بل في موضوع الامام علي (ع) وبعد وفاة الرسول (ص) وقد استعرضت براهين عقلية ونقلية كثيرة في اثبات مسألة «الوصاية» بعد النبي ورجحانها على «البيعة» ونقلت قصة الغدير وولاية الامام علي (من ص ٤٢٣ وحتى ص ٤٣٣)، ولكن وقوع هذا الفاصل بين هذين العنوانين صار سبباً لأن يتهمني البعض بالمخالفة لمسألة الوصاية والغدير رغم اني تحدثت عن مسألة الشورى صفحة واحدة وعن مسألة الغدير عشر صفحات.

(ب) في الصفحة (٥٢٩) ابديت رأيي في موضوع تعدد الزوجات مستشهداً بإعلان جبهة التحرير الجزائرية وأزمة النساء في ألمانيا بعد الحرب العالمية وغير ذلك من الشواهد، فستطرق الى جواز تعدد الزوجات في الاسلام (بالطبع مع الأخذ بنظر الاعتبار الفلسفة الخاصة والظروف والأوضاع الاستثنائية الفردية والاجتماعية) حتى اني وصفت تعدد الزوجات بأنه من الخصائص التي تدلّ على «الواقعية» في الاسلام. غير أنّ تعييري الخاص (في هامش الصفحة ١٢٠) أثار نوعاً من الإيهام رغم تصريحاتي المفضلة في هذا الصدد. ثانياً لم تترجم هذه الآية بشكل صحيح في الكتاب: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة...».

(ج) انتقادي الثالث هو اني اعتقد ان عناوين اصول العقائد الاسلامية التي نقلتها عن فريد وجدي في القسم الأول من الكتاب

(الصفحة الأولى منه) هي عناوين سطحية من حيث المستوى بحيث أشرع الآن انني قادر على استنباط القواعد الأساسية الإسلامية برؤية أدق وأعمق وأبعد مما نقلته في كتاب «معرفة الاسلام». لقد شعرت بهذه «السطحية» قبل خمس سنوات أثناء كتابة الكتاب أيضاً (وان لم يكن هذا الشعور يعمق شعوري في هذه اللحظة)، لكنني اردت ان اسند الكتاب الى سند علمي شهير فوق اختياري على سيرة فريد وجدي، مع كل ذلك وكما تلاحظون انني نقلت عن فريد وجدي المناوين فقط بينما جميع التفاصيل هي مني حتى اني طرحت مسائل جديدة وعميقة تحت عناوين فريد وجدي البسيطة وكان من الجدير أن تطرح في عناوين مستقلة.

ثم ان فريد وجدي لم يأت بالتوحيد كقاعدة أساسية من قواعد الاسلام ولعل السبب في ذلك هو اعتقاده بان التوحيد ليس مختصاً بالاسلام، غير اني قلت ان التوحيد في الاسلام يختلف تماماً عن التوحيد في الاديان السابقة نظراً لعمقه ودائرة شموله ولهذا طرحت التوحيد تحت عنوان مستقل. والاشكال الذي أراه وارداً علي هنا هو اني طرحت التوحيد في أبعاده الانسانية والاخلاقية فقط بينما تلاحظون اليوم في سلسلة دروس «معرفة الاسلام» الجديدة (طبعة الارشاد) اني وسّعت دائرة البحث الى أربعة أبعاد:

١- الرؤية الكونية.

٢- فلسفة التاريخ.

٣- علم الاجتماع.

٤- فلسفة الاخلاق.

والاشكال الثاني الذي اعتبره اشكالاً أساسياً هو انني وضعت التوحيد في مستوى أصول الدين الاسلامي الأخرى متبعاً بذلك الطريقة التقليدية بينما اعتقد اليوم ان للإسلام أصلاً واحداً لا غير وهو التوحيد، فهو بمنزلة الجذر للشجرة ولا يمكن ان يتعدّد (لأن التعدّد هو في الأغصان وليس في الجذر). واما سائر الفروع الاخرى كالنبوة والمعاد والإمامة والعدل والجهاد والحج والاخلاق و... فهي فروع تنفرع من هذا الجذر وتنشأ عن هذا الأساس.

الطالب: لا يخفى على احد انّ والدكم الاستاذ محمد تقي شريعتي مؤسس «مركز نشر الحقائق الاسلامية» هو من رؤاد النهضة الفكرية الاسلامية ومن الوجوه البارزة التي قدّمت خدمات علمية جليلة في سبيل تبليغ الدين والمذهب لا يسع المجال لتفصيلها، وهذا هو الحال بالنسبة اليكم ايضاً فالجميع يعرفون ما بذلتموه من جهود عظيمة في سبيل احياء الفكر الديني والدعوة الى الاسلام على اساس الرؤية الكونية للمذهب الشيعي وتأثيركم العميق والسريع على عقول المفكرين والطلبة الجامعيين داخل البلد وخارجه وكلنا نعلم ايضاً بأنّ التشريعات والدروس والمحاضرات (العلمية والتبليغية) والمؤتمرات

والمهرجانات وحفلات التأبين والبرامج الخاصة بشهري محرم ورمضان التي اقامتها حسينية الارشاد منذ بداية تأسيسها الى يومنا هذا وخصوصاً في السنتين الماضيتين قد اخص معظمها بالدفاع عن المذهب الشيعي ونشر معارف اهل البيت والتعريف بشخصيتهم (عليهم السلام) غير اننا وبالرغم من كل ذلك نلاحظ اليوم حملة دعائية مدروسة ومنشقة تصاحبها أنواع التهم والاكاذيب والاشاعات قد استهدفت حسينية الارشاد وشخصكم الكريم، بل استطالت لتشمل والدكم (الاستاذ محمد تقي شريعتي) الذي كرس عمره الشريف لخدمة الاسلام والمذهب. وسؤالنا هو: اولاً من الذي يقف وراء هذه الحملة الدعائية؟ وثانياً: ما هو الهدف من هذه المؤامرة؟

شريعتي: في الحقيقة، لا استطيع الاجابة على الشئ الأول من السؤال لسببين: أولاً: لأنني أعتقد انّ الجواب أوضح من الشمس، وثانياً لأنني أخاف! فلا يسعني إلا أن أقول بحذر - كي لا يسمعتي الجدار - انّ هذه الجماعة لا تؤمن أساساً بالشيء الذي تتظاهر بالدفاع عنه!

وأما أهداف هذه المؤامرة والنتائج التي يريدون الحصول عليها فهي:

١ - السعي الى تشويه سمعة حسينية الارشاد بين الجماهير وابعادهم عنها.

٢ - السعي الى تشويه سمعة حسينية الارشاد بين المتدينين لعزلها عن المجتمع وتهينة الأرضية اللازمة لتعطيلها.

٣ - الدفاع عن موقع السادة الديني والاجتماعي والمحافظة على الوضع الموجود وحكر الأفكار الدينية في أطر مغلقة لا تكون مغايتها إلا بأيديهم.

٤ - الذم بما يشبه المدح لأنهم يدافعون عن رجال الدين بنطق سقيم ولسان متفحش وافعال مستهجنة كالتزوير والتحريف والكذب والشتم والبهتان ويحرضون العوام بأنواع الطرق الرجعية العمياء والتصرفات الهمجية التي تمجها الانسانية والاخلاق ويرفضها العقل السليم، فالستهدف هنا هم «رجال الدين» وليس أنا المعلم البسيط المتواضع الضائع. انهم يقومون بهذه الاعمال تحقيراً للعلماء لأنّ التجارب جعلت هؤلاء الأعداء الواعين الذين يخافون اسلام الغد أن يعوا حقيقة أن أفضل طريقة لطمس الحقائق ليست مهاجمتها بقوة، بل الدفاع عنها بضعف.

وقد عشنا هذه التجربة مراراً عديدة في الاسلام وفي الجامعة الاسلامية العلمية وخصوصاً في الحوزة العلمية الشيعية ورأينا انّ نتائج الهجوم المباشرة كانت معكوسة دائماً.

٥ - التبليغ «للمذهب الوهابي» الجديد وتضخيم هذه الفرقة التي لم يسمع أحد في ايران باسمها من قبل ونسب كل ذي فهم وشعور الى

هذه الفرق الضالة .

٦ - عزل المجتمع الشيعي عن كيان الأمة الإسلامية وإثارة الثغرات الطائفية والاحقاد السالفة من جديد وتبديل الخلاقات المنطقية الموجودة بيننا وبين الاخوة اهل السنة الى نزاع وخصام عميق وهذه هي الخطة التي عمل بها الاستعمار منذ القرن التاسع عشر لتمزيق وحدة المسلمين.

٧ - إثارة المواطن وافتعال الفتن واختلاق النزاعات الشديدة لصرف الأذهان عن العدو وخطاره ومؤامراته. فلم يكن امراً عفواً أن يعلن احدهم من على منبر الاسلام: «ان اسرائيل هي خير لنا - نحن الشيعة - من فلسطين فإن اسرائيل ليست عدوة لأهل البيت وانما العدو هم الفلسطينيون لأن اليهود أعطوا «فدك» لأهل البيت وسلبها هؤلاء منهم!».

٨ - تنفيذ الخطة الاستعمارية القديمة التي رسمها علماء الاجتماع للمستعمرين: «حافظوا على الدين للعوام وروجوا الإلحاد بين المفكرين».

٩ - تجنّب رواج الاسلام القرآني والتشيع العلوي والحيلولة دون تعرّف الناس على الأئمة والمجاهدين الشيعة خشية تحقّق الاسلام الأصيل وتبديل «ولاية المشايخ» الى «ولاية تقدمية تحررية تصارع الجور والجهل والجوع».

١٠ - الشعور بخاطر جفاف يتابع الرزق والشرف اعني: الجهل، الطائفية، التقليد!

١١ - شل أقوى قاعدة للدعوة الاسلامية العالمية وأحد المركزين الرئيسيين لإنتاج الفكر والثقافة الاسلامية (إيران) والتي كان المسلمون في شرق ووسط آسيا (مسلمو القفاز والهند وأفغانستان وباكستان واندونيسيا وماليزيا وحتى الصين) يستضيفون بنور ثقافتهم الساطع ويفتخرون من معين علمائها وادبائها وشعرائها.

١٢ - قطع العلاقة وزرع بذور التفاف بين المفكر والجماهير والحوزة والجامعة والحديث والتقديم والجامعي والحوزوي والمستف والمامي و... لأنهم يريدون الإلحاد للمفكر والتعصب للمامي والملاهي للشباب والمساجد للشيخ الطاعنين في السن.

١٣ - كل حركة فكرية اسلامية تحاول طرح مبادئ «معرفة الذات» بشكل اسلامي تقدمي لا بد لها ان تموت قبل ولادتها، فان ولدت، لا بد لها أن تشل، وان لم تشل لا بد لها ان تشوّء وتلوث وتطرد وإلا سيغتير كل شيء... ولا بد أن لا يتغير أي شيء!

س: مع انكم دعوتكم أصحاب الرأي والقلم الى نقد آرائكم وأبديتم بذلك حسن نيتكم إلا أنكم لم تعدلوا الحد الآن عن آرائكم حتى

لمرة واحدة. هل يعني هذا أن جميع آرائكم هي في غاية الاعتقان وعارية من أي إشكال؟

ج: أن الذي يجري حولي هو مؤامرة متمثلة وممتدة وواسعة النطاق وليست قضية نقد علمي أو عقائدي.

فالذي يقرأ قصة الغدير وقصة وفاة النبي ودراساتي لشخصيات الصحابة وعلاقاتهم الخاصة وقصة عصبة أبي بكر ووقوفها بوجه علي وكلماتي الخاصة التي تمير عن حيي واخلصى ومدى حيرتي أمام عظمة علي ثم يقوم بعد ذلك بتحرير السذج من الناس بأنواع الضجيج والعراك والسب والشتم والبهتان ويتهمني بالدناء للتشيع والاسلام، لا يقوم بهذا عقولاً وإنما هي مؤامرة مدروسة متقنة. فكل من قرأ كتيبي المنتشرة في كل مكان - يعلم انني بدأت الكتابة باسم «أبي ذر الففاري» وكان عنوان آخر ما كتبت حتى الآن «التشيع الاحمر والتشيع الاسود»، فقد كثرت حياتي الفكرية وكل إيماني للدفاع عن مدرسة علي والولاء للعترة الطاهرة والشعور بالمسؤولية تجاه النهضة الشيعية التحررية الثورية العادلة. فأنني لا أنظر الى حوادث ما بعد النبي من منطلق شيعي فحسب، بل أنظر الى مسيرة التاريخ البشري ككل من هذا المنطلق (الحسين وارث آدم) وأعد فاطمة (س) حلقة الوصل بين سلسلتي النبوة والامامة أي المرحلتين الأساسيتين في القدر التاريخي للعدالة والخلاص - كتاب (فاطمة هي فاطمة). فالذي لم يقرأ كتيبي فإنه سيع

بناوينها على الأقل فقد نشر لي في السنتين الماضيتين فقط الكتب التالية:

«الحسين وارث آدم»، «الانتظار ومذهب الرفض»، «التشيع العلوي والتشيع الصفوي» «الامة والامامة في علم الاجتماع»، «الدعاء مدرسة السجادة والاحتياج والوعي والجهاد»، «الشيعية حزب كامل»، «التشيع الأحمر»، «علي: ثلاث وعشرون سنة جهاد من أجل الرسالة، خمس وعشرون سنة سكوت من أجل الوحدة وخمس سنوات صراع من أجل العدالة»، «علي، الانسان الكامل»، «وحدة علي»، «لو قال علي: نعم»، «علي حقيقة تشبه الأساطير»، «ما هي الحاجة الى علي؟»، «عصرنا يبحث عن علي»، «حياة علي بعد الموت»، «علي روح واحدة ذات عدة أبعاد»، «فاطمة هي فاطمة»، «مسؤولية الشيعي»، «أبو ذر في المواجهة مع عثمان»، «نعم، هكذا كان يا أخي»، «الشهادة = الحسين، ما بعد الشهادة = زينب»، «القاسطون، المارقون والناكثون» و....

وقد كتب غيري في حسينية الارشاد:

«الخلافة والولاية من وجهة نظر القرآن والسنة»، «علي شاهد الرسالة» و «موعود الأديان» للاستاذ محمد تقي شيرعتي و «جاذبة ودافعة علي» و «الولاء والولاية» للاستاذ مرتضى مطهري و.... وأكثر من متني محاضرة خاصة بمواضيع مدرسة اهل البيت (ع) ألقتها

مشاهير الخطباء في حسينية الارشاد ومع كل ذلك تلاحظون ان هذه الجماعة تصرّ على افعال الإشاعات واثارة الضجة واختلاق أنواع التهم والتشائم رغم كل هذه الخدمات والتناجات العلمية.

فكلّ ما كتب وقيل لم يكن تقدماً علمياً، لا اريد ان اقول ان كل ما كتيبه ليس قابلاً للنقد ولكني اقول ان كل ما سمعته لم يكن تقدماً علمياً.

فاذا كنتم تقصدون انني اصّر على كلامي ولا اقبل كلام غيري فإنكم مخطئون لأن كل من قرأ كتيبي أو حضر دروسي يعلم جيداً بأنني أقصد نفسي قبل أي شخص آخر وأكثر من أي شخص آخر وعندما أتوصل الى مسألة جديدة تصحّ آرائي السابقة فاني أبادر بإعلانها والاعتراف بها فور التوصل اليها وحتى أثناء الحصة الدراسية التي لا ترتبط بها. أمّا بالنسبة للاهتمام بآراء الآخرين فأنني أعطي ما أكتب دائماً الى طلبتي ليدلوا بآرائهم حولها واني اقبل هذه الآراء في غالب الأحيان، كما يعلم كل الذين تعاملوا معي ان لي اذنأ صاغية وصدرأ رحباً ازاء أي رأي اصلاحي أو أي نقد بناء بل حتى أترجى الآخرين ان ينقدوا آرائني. أما أنا فأصحّح دائماً وفي كل درس او محاضرة تقريباً رأياً من آرائني واعلن دائماً ان ما اقله هو مجرد رأي ليس إلّا وأضع الميكروفون بين يدي كل من يريد التحدث في جلسة عاتمة بعد كل ساعتين دراسيتين ليتحدث ثلاث أو أربع ساعات، وقد جاؤوا وتحدثوا وحتى تفصلوا علينا بالاهاة! وما كان مني ومن طلبتي ومن الحسينية إلّا أن نسمع ونصبر ونشكر!

أما اذا كنتم تقصدون ردّ فعلي ازاء سيل التهم والتشجمات والإشاعات الواسعة النطاق التي أثاروها بشكل متزامن وجايتها بأذنين أصتّين ولسان أبكم فلکم الحق في ذلك ولكي لا تخطأ هذه الجماعة في تفسير هذا الكلام عليّ أن أقول انني سوف لا اسكت ابداً عن اولئك الذين لا يألون جهداً في خداع الناس وطمس كل فكرة وحركة تسعى لإحياء الايمان وتوعية الافكار وعن اولئك الذين يصوّرون إمام الشيعة بصورة مرتزق يسترحم الخليفة، ويصوّرون الحسين العظيم بصورة مضطّر يسترحم الشر، وسوف لا اساموم ولا اضحّي بالحقيقة من أجل مصلحتي الخاصة حتى لو صلبوني وسحقوني وكفّروني... ورجائي وتوقّمي من كل من يشعر بالمسؤولية تجاه الدين والناس وخصوصاً علماء الشيعة الحقيقيين أن يعينوني في هذا الطريق. واما اولئك القوم فإنهم قد يستطيعون أن يصلبوني كما صلبوا «عين القضاة» أو يحرقوني كما حرقوا «جرنادو» لكنهم لن يقدرُوا أن يسمعوا مني صوت «آء» واحدة، وكما قال أبو ذر: لو ضغط غلمان عثمان وعبد الرحمن وكعب الاحبار (مثلت السلطة والذهب والتزوير) السيف على نحري ولم يبق مني إلّا نفس واحد فسألفظ ذلك النفس بقول كلمة حق، من أجل التشيع الملوي الذي أوّمن به بكل وجودي حتّى لو لم تكن هذه الكلمة لا تصبّ في صالح التشيع الصفوي!

وفلام



E-mail: jafar_zh_attar@yahoo.com

٤٣.....	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٤٣.....	استمرار دين الشرك
٤٤.....	قاعدة حماية دين الشرك الاجتماعية
٤٦.....	العامل الرئيسي في دين الشرك
٤٦.....	الدين الأفريقي
٤٧.....	المرجئة في التاريخ
٤٧.....	حركة دين الشرك
٥٣.....	الله والناس
٥٤.....	اتباع الطاغوت
٥٩.....	دين الكفر ودين الاسلام
٦٠.....	هيمنة دين الكفر على التاريخ
٦١.....	المال مال الناس
٦٣.....	عيال الله
٦٣.....	دعم التمييز الطيفي والعرفي
٦٤.....	الرب والخالق
٦٤.....	المدينة المنورة رمز المجتمع المثالي
٦٧.....	الدين في ايران
٦٧.....	الطبقة الأولى والطبقة الثانية
٦٨.....	الطبقة الثالثة
٦٩.....	رجال الدين المجوس وتبرير التمييز الطيفي
٧٢.....	أنبياء دين التوحيد

فهرس الموضوعات

١٧.....	مقدمة الطبعة الفارسية
١٨.....	ملاحظات الناشر
٢١.....	كلمة بخصوص الترجمة
٢٣.....	الدين ضد الدين
٢٩.....	الكفر
٣٠.....	الشرك
٣١.....	عبادة الأوثان
٣٢.....	خصائص دين الشرك
٣٣.....	التوحيد
٣٦.....	السامري
٣٦.....	يلعم بن باعورا
٣٧.....	الفريسيون
٣٧.....	مشركو مكة
٤٠.....	ماهية الدين الثوري
٤٢.....	ماهية الدين التبريري

٧٢	دين الشرك الجلي والخفي
٧٧	خطأ المفكرين
٧٧	رسالة العلماء والمفكرين
٨٧	نعم ، هكذا كان يا أخي
١١٧	توينبي ، الحضارة - الذين
١١٩	حوار مع توينبي
١٢٥	وداعاً يا مدينة الشهادة
١٤٣	لولا البابا وماركس
١٥٩	ندوة للإجابة على الأسئلة والانتقادات
٢٠٧	مقتطف من حوار مع أحد الطلبة الجامعيين

لحم بجملة

تاريخ اقتناء هذا الكتاب

٢٠١٢ / ١٢ / ١٠

٣
١٢

حزني والمني الوحيد هو انني لم أستطع ان انهي
اعمالي ، بل انني لم أستطع الاستمرار بها وستبقى
تلك غصة ماثلة امامي ، هذا من جانب . ومن جانب
آخر فأت حزني والمني على الكثير من اعمالي
الرئيسية بقيت أسيرة زمامها ، ومهددة بالزوال ، وما
نشر منها طبع على شكل مسودات مليئة بالاعلاط ،
وذلك لقلة الامكانيات وكثرة المشاغل.

يجب عدم النظر الى اعمالي على أنها أعمال علمية
تحقيقية فحسب ، بل يجب ان تخلقاها كصرفات - من
شدة الالم والاسى - ودلائل باتجاه الطريق وهزات من
أجل الصحة ، ومساعد على الطريق ، ونظرات كلية
في اطار الدين ودعوة واحدة ورؤى ، وأخيرا نوعا من
التعبئة الفكرية والروحية في المجتمع.

كل ذلك كتبته وأنا منفي وتحت ظروف ضاغطة ،
ومؤمرات محاكم ، وفي حال كنت أنتظر فيها
المصيبة في كل لحظة ، لذلك يجب ان يعاد النظر
في هذه الكتابات من الناحية العلمية والفنية ،
وتصحيح الأخطاء اللغوية والمعنوية وتصليح مرة
أخرى ، فهي ثمرة حياتي وكل ما أتمنى ، وهي كل
وجودي وميراثي.

ان لطف الله وحرقة أوليائه للدين ، جعلتني أتكلم
في هذا السكوت المصليق ، في زمان أصبحنا نفقد
فيه كل شيء ، فامتنا تعاني من مسخ هويتها ،
وغديرنا العذب في حال الجفاف وهذه صائرتنا
الشامخة بقيت بلا مدافع عنها امام الحمجية
والغوغائية حتى أقمت من الصعب ان يجد كلامي
طريقه بين آلاف الاحقاد والالام التي تحيملنا.

هذا وصية الدكتور شريعتي



دار

الفكر الجديد

العراق. اللجف الاشرف

٠٧٨٠١٠٣٦٠٠٨ * ٠٧٨٠١٥٨١٤٧١